بِسۡمِ اللّٰهِ الرَّحۡمٰنِ الرَّحِيۡمِ

باقة خطب علمية أردية تَضُمّ في طيّاتها سيرة الإمام

أحمد رضا خان الحنفي القادري الهندي

ومحاسنه وكمالاته، فقهه وفتاويه، تصوفه وسماته

خدماته ومآثره، شهيرة بـ

اَلْخُطَبُ الْمِصْبَاحِيَّة

في التعريف بالرَّضا والرَّضوية

لفضيلة الشيخ

محمد نظام الدين المصباحي الغجراتي

دار العلوم الغوثية، بمدينة بليك بيرن، بالمملكة المتحدة

جمعها ورتّبها

الفاضل محمد أعظم المصباحي المبارك فوري

أعاد صياغتها العربية

الفاضل محمد شمشاد عالم المصباحي الأزهري، (نيبال)



جماعة رضاء المصطفى

انكلترا، المملكة المتحدة البريطانية



اسم الخطب : الخطب المصباحية في التعريف بالرضا والرضوية

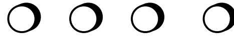
اسم الخطيب : **الشيخ محمد نظام الدين المصباحي**

جمعها ورتبها : الفاضل **محمد أعظم** المصباحي، المبارك فوري

أعاد صياغتها العربية: الفاضل **محمدشمشادعالم** المصباحي الأزهري (نيبال)

عنيت بطبعهاونشرها : **دار أهل السنة** لتحقيق الكتب والطباعة والنشر

جماعة رضاء المصطفى (المملكة المتحدة)



يطلب من:

(١) : **إمام أحمد رضا أكيدمي بمدينة بريلي**

(٢) : **نوري كتاب گهر، ببلدة مبارك فور.**

(٣) : **مكتبة حافظ ملت ببلدة مبارك فور.**

(٤) : **جامعةُ السّلام، بـ "نيبال".**

الإهداء

إلى

الإمام الهمام، مجدِّد الإسلام، عَلَمِ الأنام، الشاه

الإمام أحمد رضا خان

الحنفي الماتريدي القادري الهندي

وإلى

حافظ الملة الشاه **عبد العزيز** المحدث المراداباي

ثم المباركفوري

كلمة الخطيب

الحمد لله، والصّلاة والسّلام على خاتم الأنبياء، وعلى آله الطيبين، وأصحابه الغرّ الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد!

الخُطَب المصباحية هذه، التي جادت بها القريحة وانسكبت انسكاب النسيم على الرياض الندية في مجالس متعددة، وألقيت في محافل علمية ومناسبات متفرّقة، وتضوعت بنفحات الفكر في مواطن الجلال والجمال، ما هي إلا شذىً ناطق بشمائل الإمام الهمام، مجدد دين الإسلام، علم الأنام، الإمام أحمد رضا خان الحنفي القادري الهندي.

وها هي بعد أن كانت أنفاسا متقطعة في فضاءات المجالس والمحافل، تتجلّى اليوم في حلل التدوين، وتصافح أعين المطالعين في صيغة علمية رصينة بين دفتي هذا السفر المبارك.

وقد انبثقت هذه الخطب المباركة عن تجاوب واع واستجابة واعية لمبادرات علمية ناضجة، وتحفيزات متواصلة لا تعرف الفتور، من لفيف من الفضلاء الأماجد، وثلة من النبلاء الأكارم، الذين كان لهم ـ بعد منّة الله وفضله ـ اليد الطولى في لمّ شتاتها، وجمع متفرقها، وترتيبها على نسق يليق بمحتواها العلمي.

وباكورة هذه الخطب كانت قد ألقيت في مجلس علمي مهيب، تمددت أطنابه في دار الشيخ الحافظ المتقن شفيع بمدينة بليك بيرن، ذاك المجلس الذي ازدانت جنباته بوجوه العلم، وتضوعت أرجاؤه بعطر الفضل والمعرفة، إذ حضره كوكبة من نخبة أهل العلم وأرباب البصائر، في طليعتهم: فضيلة الشيخ فاروق الأشرفي، والفاضل إدريس، والفاضل خير الدين، والشيخ محمد سليم الرضوي، والحافظ إلياس، والحاج القاضي مشتاق، والشيخ الحافظ يونس من مدينة بولتن ببريطانيا، وغيرهم من أعلام السنة، الذين تجمعت فيهم سجايا العلم، وأنوار المحبة، وصدق التوجه في خدمة الميراث النبوي.

ثمّ أقيمت المجالس والمحافل تباعًا، فكان المجلس الثاني منبرًا لخَطبةٍ جديدة، انعقد بعنايةٍ كريمة ودعوةٍ خالصة من الأحبة في مدينة العلم (علم سيٹی)، وكان في طليعة المنظمين، الحاج سلمان العطّاري، والحافظ آصف، فجزاهم الله عن العلم وأهله خير الجزاء، وقد انتشرت خطبة ذلك المجلس انتشار النسيم في الأسحار، إذ أذيعت عبر قناة مخصصة على موقع "يوتيوب"، فبلغ صداها من لا تطاله القوافل ولا تدركه الركائب.

ثم هبّت رياح الإقبال مرةً أخرى، فشحذت الهمم،

واستثيرت العزائم، لإلقاء خطبة تالية، تلبيةً لرغبة ملحّة من الحاج القاضي مشتاق، والحاج وجيه الدين الرضوي، فجزاهما الله عن حسن النية وبذل المسعى خير الجزاء، وتبع ذلك خطاب آخر بدعوة كريمة، وإيعاز كريم من فضيلة الشيخ المفتي محمد سليم البريلوي، ذلك العلم الراسخ، والسراج الوضّاء، فله أخلص الدعاء، وأزكى عبارات الثناء، على ما أولاه من اهتمام وتقدير.

أما الموضوع الماتّ بصلة إلى مكانة الوقت وقيمته عند الإمام أحمد رضا خان، فقد سبق للعبد الفقير أن أفرده بمقال مفصّل، تناول فيه إشراقات الإمام في تقدير اللحظات وتثمير الأوقات، واستجلاء ثمرات الأعمار في خدمة الشريعة والذود عن حياضها، وبما أنه بدا لهذا المقام الميمون أن السياق يقتضي إيراده، فألحق بهذه المجموعة نزولا عند رغبة العزيز الغالي الفاضل محمد أعظم المصباحي المبارك فوري، أستاذ الجامعة الأشرفية بمارك فور بولاية الشمال بالهند.

وقد دونّت هذه الخُطب، وجعلت من بياض المشافهة إلى سواد التدوين والكتابة استجابةً لطلب كريم من "جماعت رضاے مصطفى" بالمملكة المتحدة، تلك الجماعة التي توافقت فيها الغيرةُ على الدين، والنفس العلمي، والعناية بتراث أهل السنّة،

فكان أن انبرى لها الحافظُ الفاضل المفتي محمد أعظم المصباحي المبارك فوري، يصفّها صفّ الخرز النضيد، وينمّقها في أسلوب رصين، ويُهذّب عباراتها ليُقرّب معانيها، ثم يُعيدها إلى صحائف الرقّ المعنونة بنشر النور ابتغاء نفعٍ عام، ورغبة الصدق في بث شعاع الهداية في جنبات الزمان والمكان.

وقد قيّض الله لهذه الخطب من يُجدد سَناها ويُقوّم عوجها، فأكرمها بنظرة فاحصة ومراجعةٍ دقيقةٍ، العالم الأجل، والناقد البصير، فضيلة المفتي محمود علي المشاهدي المصباحي، أستاذ الجامعة الأشرفية بمبارك فور، فغاص في دررها، ونقّح مواضعها، وأضفى عليها من روحه العلمية وحسّه المعرفي ما زادها بهاءً على بهاء، وسبغ عليها حُلّة من الجمال والاتساق تُناسب جلالة الموضوع، وتليق بمقام الإمام الذي كُتبت لإظهار شمائله.

ولولا توفيق الله ثمّ الجهود المخلصة التي بذلها الفاضل محمد أعظم المصباحي -أيده الله تعالى- في جمع هذه الخطب، وعنايته الفائقة في إعدادها وتنسيقها، ومراجعة سماحة الشيخ المفتي محمود علي المشاهدي - متّعه الله بالصحة والعافية- التي جاءت كاللمسات الأخيرة على جوهرة مصقولة، لما أشرقت هذه الخطب بنورها على صفحات الطباعة، ولا وصلت إلى أيدي

طلاب العلم والمعرفة في هذا الحلل البهيّة، والصياغات الجليّة.

ولذا، فإنّ هذا العبد الفقير - غفر الله له، وستره في الدنيا والآخرة - يهدي لهما من أعماق القلب أصدق آيات الشكر، وأعمق عبارات الامتنان على ما بذلاه من جهدٍ مشكور، وعمل مأجور، سائلاً المولى عز وجل أن يجعل جهودهما في ميزان حسناته مقبولة، وأن يجزيهما عن العلم وأهله خير الجزاء وأوفاه.

وفي نهاية المطاف، أهيب بكل من أكرمه الله بالانتفاع بهذه الخطب، قراءةً أو سماعًا، أن يخصّ العبد الفقير – عفا الله عنه – وأعوانه الكرام، ومحبيه الأوفياء، وكل من أسهم في إخراج هذا السفر المبارك، بنصيب وافر من صالح الدعوات في الخلوات، فإن الدعاء بظهر الغيب أرجى للقبول، وأقرب إلى الإخلاص، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكّلت، وإليه أنيب.

محمد نظام الدين المصباحي

دار العلوم الغوثية، بليك بيرن، بريطانيا

كلمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

حامداً ومصلياً ومسلماً

إن الإمام المجدد، العارف الكامل، قطب الزمان، غوث العصر، الإمام أحمد رضا خان الحنفي القادري الهندي، كان علمًا شامخا من أعلام الأمة، وحامل لواء السنة في وجه البدعة، ومحدّثًا فذًا، وفقيهًا بارعًا، ومفسرًا بصيرا، وأصوليا نحريرا، وعالما ربانيًا، وعاشقًا صادقًا لرسول الله ﷺ، لا يجارى في حبه، ولا يبارى في اتباعه، ولا دفاعه عنه ﷺ.

ولقد أفاض الله تعالى عليه من أنوار الفضل وأسرار الكمال، وألبسه من حلل الجمال والكمال؛ مما جعله آية في الذكاء وإماما في التحقيق، ومنارة علم تهدي الحيارى، حتى غدا نسيج وحده، وفريد دهره، قد جاوزت همته حدود الزمان، ووسعت مداركه آفاق المكان، فخدم الشريعة الغراء ونصر السنة البيضاء، ونافح عن حياض الإسلام بفكر نابهٍ وقلمٍ صائب ولسانٍ صادق،

حتى أدّى في حياته منفردا من المآثر العلمية ما تعجز عنه الجماعات، ومن الإنجازات الدينية ما تكلّ عنه الحركات والمؤسسات.

فقد أوقف المجدد الإمام أحمد رضا خان حياته وقفًا تامًا لخدمة الإسلام والمسلمين، فجعل ليله ونهاره، وسرّه وعلانيته، في نصرة الحق، وإحياء السنّة، ومقاومة البدعة، فكان حصنًا منيعًا لأهل التوحيد والسنّة، وسيفًا مصلتًا في وجه كل من رام النيل من عقائد أهل الحق أو أراد تشويه معالم الشريعة.

وتصدّى بقلمه الراسخ، وبيانه الفذ، وفتاويه البالغة، لكل فتنةٍ مضللة، وعقيدةٍ زائغة، وخرافةٍ موروثة، وعادةٍ باطلة، فدكّ حصون الباطل، وأعلى رايات الهدى، حتى غدا صوته صوتَ الحق الناطق، ولسانه لسانَ الشريعة الصادع، لا يحيد عن سنن السلف، ولا يجامل في دين الله أحدًا، نُصرةً للملة، وذبًّا عن الشريعة، وتثبيتًا لأركان الهداية.

وقد شهد بعلوّ شأنه، ورفعة مكانته، وسَعة علمه، وسموّ خدماته، جهابذةُ العلماء من العرب والعجم، وأقرّوا له بالسبق والريادة، والتمكّن والتبحّر، في معارج العلم والدين، فأنزلوه المنزلة التي هو أهلها، ولقّبوه "مجدد العصر"، فجزاه الله عن

الإسلام والمسلمين خير الجزاء وأزكاه.

وفي هذا العام، وفي أجواء يضوع فيها عطر الذكرى المباركة للإمام المجدد، انبرى الداعية المبرز، والخطيب المفوه، فضيلة الشيخ محمد نظام الدين المصباحي، أستاذ دار العلوم الغوثية بمدينة بليك بيرن في المملكة المتحدة، فأتحف المحافل بخطب نَيّرة، ومحاضرات بهيّة، أضاء فيها زوايا من سيرة الإمام، واستجلى معالم عبقريته في الفقه، والفتاوى، ووفائه العميق وتمسكه التام للشريعة الغراء، وتمكّنه الأصيل في ميادين التصوف السَنِيّ والطريقة النقية، مشيرًا إلى تلك الهيبة الجليلة التي كان يحظى بها بين أكابر العلماء وسادات الأولياء.

وقد أُلقِيَت هذه الخُطب بأسلوبٍ علميٍّ رصين، ونَسَق معرفيّ متين، يجلِّي عمقَ الفهم، ويُبرِز جمالَ الطرح، ويَمزج بين رَونق البيان وسَلاسة التعبير، فخرجتْ بفضل الله في حُلّة تَستهوي العقول، وتُلهِم القلوب.

ولمّا كانت هذه الخُطب تزخر بالفوائد الجليلة، وتحوي بين دفّتيها دُرَرًا نفيسة من المعاني والدلالات، رأت "جماعة رضاے مصطفى"، الكائنة في المملكة المتحدة، أن تعمّ فائدتُها، ويَنتشر نُورها، فأبدت رغبتها الكريمة في جمعها ونشرها، وأسندت هذه

المهمة الجليلة إلى كاتب هذه السطور، الفقير محمد أعظم المصباحي المبارك فوري، فقمت بها مُستعينًا بالله، متوكّلًا عليه، جامعًا مادّتَها من التفريغ الصوتي لتلك الخُطب الميمونة.

فبحمد الله وتوفيقه، وتيسيره وتسديده، تمّ لي جمع هذه الخُطب في أيام قلائل، بما يسر الله من العزم والهمة، ثمّ عرضتُها بغية مزيد من التثبّت والتحقق، على أستاذنا الجليل، وشيخنا النبيل، فضيلة المفتي محمود علي المشاهدي، أستاذ الجامعة الأشرفية بمبارك فور، حفظه الله ورفع مقامه.

فأولاها من عنايته ما تستحق، وخصّها من وقته الثمين بما تيسر، وأفاض عليها من كنوزه العلمية، ونفحاته التدقيقية، ما زادها رصانةً وبهاءً، ودقةً ومتانةً، وجمالاً ورسوخًا، فخرجت في حُلّتها الأخيرة، أنضرَ ما تكون وأجملَ ما يُرجى.

أسأل الله رب العرش العظيم أن يبارك في عمره وعلمه، ويجعله ذخرًا للإسلام والمسلمين، وأن يتقبل هذا العمل المتواضع خالصًا لوجهه الكريم، وينفع به الخلق أجمعين، آمين يا رب العالمين.

وما كنتُ لأُعدَّ من أهل الإنصاف والوفاء، لو لم أُشِر في هذا المقام إلى الجهود الطيبة، التي بذلها الأخ الحبيب، والشاعر

الأديب، الحاج مهتاب بيامي، أحد الكوادر النشيطة في الجامعة الأشرفية بمبارك فور، ممّن عُرفوا بالانخراط المتواصل في أعمال التصميم وإعداد المؤلفات العلمية والمجلات، كـ"المجلة الأشرفية" الشهرية وغيرها، فقد تفضّل بتولّي تنضيد هذا السفْر المبارك، وتصميمه، بكل عنايةٍ وحرصٍ، ودقةٍ وإتقان.

كما لا يفوتني أن أتقدّم بخالص الشكر والتقدير لأخي الفاضل محمد معاذ القادري، الذي قام بمراجعة الكتاب قراءةً واعتنى بإصلاح ما بدا من هناتٍ في الكتابة والطباعة، بعينٍ ناقدة، ونظرٍ بصير.

وإنّ التنكُّرَ لمثلِ هذهِ الجهودِ ضربٌ من اللؤمِ لا يليقُ بأهلِ العلمِ والفضلِ، وإنّ من تمامِ التوفيقِ أن نذكرَهم بالشكرِ والدعاءِ، سائلينَ ربَّ العرشِ العظيمِ أن يُعليَ قدرَهم، ويجزلَ لهم المثوبةَ،آمين.

كما لا يسعُ المنصفَ أن يَغضَّ الطرفَ عن الأركانِ العاملينَ لـ "جماعت رضاے مصطفى" بالمملكة المتحدة، وعلى رأسِهم رائدُها وقطبُها فضيلة الشيخ محمد نظام الدين المصباحي – مدّ الله ظلَّه العالي–، الذي بذلَ وسعَه ووقتهُ بصدق وعزم حتى خرجَ هذا المؤلَّفُ إلى حيز الوجود، فلهُم منّا الدعاءُ والثناءُ ما دامَ للعلمِ

حاملوه، وللحقِّ ناصروه، وللخير فاعلوه.

إنّ فضيلةَ الشيخ محمد نظام الدين المصباحي-حفظه الله تعالى- من أهلِ العلمِ والفضلِ، ومن الراسخينَ في ميادينِ التدريسِ والخطابةِ والتأليفِ والتحقيقِ، فهو أستاذٌ بارعٌ، وخطيبٌ مفوّه، وكاتب متميّز، وباحث مدقّق، قلّ نظيرُه بين أقرانه.

ومع ما حباه الله به من هذهِ المواهبِ الجليلةِ، فإنّه عَطوف على الجميعِ، مُحبّ للعلمِ وأهله، مقدِّر للعلماءِ، وفيّ للجامعات والمراكز العلمية، لا سيما الجامعة الأشرفية التي يحمل لها وُدًّا خاصًّا بين جنباته.

كما أنه صادقُ اللسانِ، ملتزمٌ بالصلاةِ والصيامِ والأذكارِ والأورادِ، نسألُ الله له دوامَ التوفيقِ والاشتغال.

وله مؤلَّفاتٌ نافعةٌ مشهورةٌ، منها:

(١) مصباحُ الاعتكاف،

(٢) مصباحُ العمرة،

(٣) فضائلُ العلمِ والعلماءِ،

(٤) قطفُ الأزهار من بستان المرقاة،

(٥) نوادرُ التوقيت،

(٦) مسألةُ مواقيتِ الصلاة في البلادِ ذاتِ العرضِ الزائد،

(٧) نظامُ القراءة، وغيرها.

ومما يدلّ على قوّةِ بحثِه وسَعةِ اطّلاعِه أنّه قام بتحقيقِ وتخريجِ وتعليقِ كتاب "خلاصة الوجيه" للإمام الشيخ أحمد الفاروقي الغجراتي، في سيرةِ العارف بالله الشيخ وجيه الدين العلوي، وقد طُبع هذا السفرُ العلميُّ مؤخرا بمصرَ في هذا العام بحلّة علمية متميزة، فجزاه الله عن العلمِ وأهله خير الجزاء.

ومما يُذكَر لمقامه العلميّ أنّه تولّى نقلَ العديدِ من المؤلّفات القيّمة من اللغة الأردية إلى اللغة الغجراتية، كما أنه أَحْيَا كثيرًا من المخطوطات النادرة والدرر المطمورة، فاستخرجها من غياهب النسيان، وتولّى بنفسه الإشراف على تحقيقها وتخريجها، ونشرها بطباعةٍ عصريةٍ فاخرةٍ من مطابع الهند وباكستان، ومصر وبيروت وغيرها، فجزاه الله عن العلم وأهله خير الجزاء، وجعل أعماله في ميزان حسناته، وصان مقامه من كيد الكائدين ونظر الشانئين والحاسدين، آمين يا رب العالمين.

وفي الختام، أتوجّه بنداء خالص إلى القرّاء الكرام أن يتفضّلوا علينا بدعوة صادقة في ظهر الغيب، وأن لا ينسونا ووالدينا، لاسيّما شيخَنا الجليل محمد نظام الدين المصباحي، ووالدَه المكرّم الحاج علي موسى، وأن يتضرّعوا إلى الله بالرحمة والمغفرة

لوالدته المرحومة الحاجة فاطمة، ولمُحبِّينا ومحسنينا الكرام: الحاج وكيل أحمد، الحاج إرشاد أحمد، محمد أكبر، محمد مبين، عبد الغفار، ولجميع المؤمنين والمؤمنات.

كما نسأله تعالى أن يجزي خيرًا كلّ من ساهم وأعان في طباعة هذا الكتاب، وأن يبارك لهم في علومهم وأعمالهم، ويزيدهم رفعةً وعزًّا، ويزيدهم بركة في معارفهم وأعمالهم وفي أعمارهم وأرزاقهم، وازدياد شرفهم، ويمنّ عليهم بالحظّ الوافر في الدنيا والآخرة، إنه سميع مجيب، وهو أرحم الراحمين.

آمين بجاه سيد المرسلين، صلى الله عليه وسلم.

محمد أعظم المصباحي المبارك فوري

أستاذ الجامعة الأشرفية بمبارك فور، الهند

مكانة الإمام في الفقه والفتاوى

بِسم اللَّه الرَّحْمَن الرَّحِيم

الحمد لوليّه، والصلاة والسلام على حبيبه،

أما بعد! فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم،

بِسمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم:

«من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين».

أيها الإخوة المشاهدون الأكارم!

أنتم الآن على موعد مع حلقة فريدة من نوعها، تسلّط الضوء على عَلَم من أعلام الأمة، وإمام من أئمة الدين، العارف الرباني، البحر العلمي، إمام أهل السنة، الإمام أحمد رضا خان الحنفي القادري الهندي رحمه الله تعالى.

وقد استمعتم قبل قليل إلى تلاوة عطرة من كلام الله تعالى بصوت الأخ الفاضل الحافظ المتقن، محمد سفيان ابن الحافظ المقرئ نثار، حفظه الله، والذي أعقبها بإطراب أسماعكم بصوتٍ رخيمٍ ناشدًا مدح النبي الكريم صلى الله عليه وسلم

بطريقة تذيب القلوب وجدا وشوقا.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يزيده علمًا وفضلًا، وأن يُمتعنا وإياه بالصحة والعافية، والعمر المديد في طاعته.

أيها الأحبة! إن من أعظم ما أكرم الله تعالى به أمتنا، أن سخّر لها رجالًا أفذاذًا، يحملون لواء العلم، ويضيئون للأمة دروب الهداية.

ومن هؤلاء الأفذاذ، الإمام أحمد رضا خان الحنفي الهندي، الذي طوّق أعناقنا بأفضاله، وأغنانا بعلومه، وقدّم لنا ثروة علمية لا تقدّر بثمن، دون أن يطلب منا جزاءً ولا شكورًا.

وحُقّ علينا -لا من باب المجاملة بل من صميم الواجب الشرعي- أن نعبّر عن امتناننا له بباقاتٍ من المحبة والتوقير، وأن نُظهر اعترافنا بفضله، ونُخلّد ذكره بما يليق بمقامه الرفيع.

لقد أعطانا ذلك الإمام الجليل الكثيرَ والكثيرَ، ولم يأخذ منا شيئًا، وها نحن اليوم بصدد الحديث عن أحد أعظم مؤلفاته، وأجَلّ آثاره، ألا وهو "الفتاوى الرضوية"، هذا السفر الجليل الذي يُعدُّ كنزًا ثمينًا وموسوعةً فقهية جامعة، حوت من دقائق الفقه وأسراره ما قلّ أن تجتمع في غيرها.

ولكن قبل أن نلج أبواب هذا الكنز العلمي، لا بد لنا أن

نمهّد السبيل بتعريفٍ يسيرٍ لكلمة "الفتوى"، حتى نتبيّن قدر هذا العلم، وجلال هذا المنصب.

فالفتاوى، أيها السادة، جمع "فتوى"، وهي مأخوذة من "الفتوة"، التي تدلّ على السخاء والقوة، ولا يبعد أن نرى في هذا الأصل اللغوي عَلاقةً وثيقةً بالمصطلح الشرعي، إذ إن المفتي يسخو بعلمه كما يسخو الكرماء بأموالهم، ويُفيض من معينه العلمي على طالبي الهُدى والرشاد، كما يُفيض السحاب بمائه على أرض عطشى.

أما "القوة"، فهي شرطٌ لا غنى عنه في هذا المقام؛ فمن يتصدر للإفتاء، لا بد أن يكون قويَّ الحُجّة، راسخَ الفهم، ثابتَ القدم في ميدان إيراد البراهين والأدلة، واسعَ البصر في استحضار الشواهد واستقراء الحجج.

فالفتوى - باختصار - هي الجواب الشرعي المستند إلى الأدلة، الذي يُصدره العالم العارف بالأحكام، فيما يُعرض عليه من المسائل والمستجدات.

ويا للعجب! إن الله سبحانه وتعالى نسب الفتوى إلى ذاته العلية، فقال في محكم التنزيل: ﴿قل الله يفتيكم﴾، فكان هذا دليلًا على أن الإفتاء سنةٌ إلهية، ثم جاء النبي ﷺ ليُفتي أصحابه،

فكان الإفتاء سنةً نبوية، ثم سار على هذا النهج سلفُ الأمة، حتى صار الإفتاء ديوانًا قائمًا، ومنصبًا شرعيًا رفيعًا، لا يُعطى لكل من لبس العمامة أو أرخى اللحة.

ولكن ـ للأسف ـ في زماننا هذا، قد تم ابتُذال هذا المقام، وتهاون الناس في حمل هذا اللقب، حتى صار يُطلق على من هبّ ودبّ بمجرد زينة ظاهرة أو جُملة محفوظة دون نظر في أهليته، أو تحقيقٍ في سعة علمه، أو اختبار في رسوخه في الفهم والفقه!

فبمجرّد أن يلبس المرء عمامةً أو يُطلق لحيةً، يُطلق عليه لقب "مولانا"، فإذا زاد عليها جُبّةً وقفطانًا، قيل عنه "عالم"، وإذا رفع صوته هائلا في الخُطب والمواعيظ، قيل عنه "فاضل"، وإذا أجاب عن مسألتين أو ثلاث، أصبح يُلقّب بـ"المفتي"، حتى بلغ الغلو ببعض المتعالمين أن لقّبوا أنفسهم بـ"المفتي الأعظم"، وربما لا يُحسن أحدهم فكَّ العبارة، ولا فقهَ الإشارة! فيا له من زمان!

وإن من غرائب هذا العصر أن نسمع بمفتي الزقاق، ومفتي الشارع، وربما مفتي العائلة أو الحيّ! وهذا لا يليق بهذا المقام الشريف، الذي لا يُعطى بالألقاب، وإنما يُنال بالتحقيق، ويتأتى بالمكابدة والتحصيل، والصبر على الجلوس بين يدي الشيوخ، وملازمة المحابر والدروس.

كما تحدث عن هذه الغرائب بعض الصالحين فقال: سيأتي زمانٌ يُقال فيه "المفتي الأعظم للحيّ أو المفتي الأعظم للمحلّة، بل يوجد مفتي الأزقة والشوارع!

وما ينبغي أن يكون الأمر كذلك، بل يجب أن يكون للمفتي الأعظم مكانة رسمية عالية على مستوى الدولة، أو على الأقل على مستوى الإقليم أو المحافظة، لا أن يتحول هذا اللقب الشريف إلى مجرد زينة فارغة، بلا علم ولا أهلية.

فاتقوا الله، أيها الإخوة! وافهموا معنى هذا المنصب الشريف، منصب الإفتاء، ولا تطلقوا هذا اللقب الجليل على كل من لا خلاق له فيه.

وأقول قولي هذا من أعماق قلبي: أننا لسنا مؤهلًا لهذا المقام، ولسنا مستحقين أن نُلقّب بـ"المفتي"، فكفى أن يُقال لنا "مولانا"، فهذا اللقب يكفينا.

أيها الإخوة الكرام! ليعلم الجميع أن من أكمل دراسةً تقليديةً سائدة في العلوم الشرعية، فذلك لا يؤهله بمفرده للإفتاء، ما لم يُصاحبها تدريبٌ دقيق، وتوجيهٌ مباشر، وجلوسٌ طويل عند المفتي المحقق، كما يُفعل في سائر العلوم التجريبية، كعلم الطب والهندسة وغير ذلك.

فكما لا يصح أن يُلقَّب رجلٌ بـ"الطبيب" لمجرد قراءته كتب الطب، فكذلك لا يُطلق لقب "المفتي" على من قرأ بعض كتب الفقه دون ممارسة عملية، ودون تربية علمية على أيدي الأكفاء والمؤهلين.

فالفتوى علمٌ ورسالة، وميزانٌ وعدالة، وشرفٌ وأمانة، لا تُعطى إلا لأهلها.

قال الله عزّ وجلّ:﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقال: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾، فالله جل جلاله تولى بنفسه بيان الحكم لعباده، ثم أمر نبيه أن يُبيِّن، ثم ورّث هذا المقام للعلماء العاملين.

فالإفتاء ليست حرفةً تُكتسب بالقراءة العابرة، ولا رتبةً تُنال بالشهادات والأزياء الفاخرة! بل هو مقامٌ لا يُدرَك إلا بالتتلمذ على المحققين والتلقي عن البارعين، والمجالسة لأهل الفقه الراسخين، والمِران الطويل في أحضان كتب الأصول والفروع، كما هو الحال في مهنة الطب تمامًا، فلا يكون الجراح جراحًا بمجرد قراءة الكتب، بل لا بد له من التدريب العملي تحت إشراف أهل الخبرة.

ثم اعلموا -رحمني الله وإياكم- أنّ مقام الفتيا لم يكن

يومًا سبيلًا ممهّدًا لمن لا يعبأ به، ولا ميدانًا مفتوحًا لكل متعالمٍ متطفّل، بل كان عبر التاريخ الشريف منصبًا ساميًا، لا يتقدّم له إلا من شرب من معين الوحيين، وتضلّع من أصول الشريعة وفقهها، ومارس النظر والاستنباط حتى اشتدّ ساعده في الدين، وتوثّقت قدمه في ميدان الفهم والتحقيق.

فقد تصدّر للفتيا في أول الأمر صفوة الخلق، وأطهر القرون، وهم الصحابة الكرام، الذين تلقّوا عن سيد الأنام ﷺ، ثم ورثهم في ذلك التابعون الأخيار، ثم أتباعهم بإحسان، جيلاً بعد جيل، رضي الله عنهم أجمعين.

ثم بزغ فجر الأئمة المجتهدين، الذين أجمعت الأمة على إمامتهم، وارتضتهم قدوة في الاستنباط والبيان، كالإمام الأعظم أبي حنيفة، والإمام الشافعي، والإمام مالك، والإمام أحمد بن حنبل، رحمهم الله تعالى ورضي عنهم.

ثم خلفهم تلامذتهم الراسخون، الذين بلغوا رتبة الاجتهاد في المذهب، يردّون النوازل إلى الأصول، ويستنبطون الأحكام من مشكاة الأئمة الأجلة.

فإذا جدّت حادثة لم يُنقل فيها نصّ صريح عن الإمام أو أصحابه، تولاها عالم محقّق، له قدم راسخة في الفقه وأصوله،

فينظر فيها نظرًا دقيقًا، ويستنبط لها حكمًا شرعيًا، ويُعدّ في هذه الحالة مجتهدًا في المسائل، وهو مقام جليل لا يبلغه إلا من استوفى عدّة الاجتهاد وتضلّع من علوم الآلة.

ثم نشأت مراتب أخرى في خدمة الفقه، كأصحاب التخريج، الذين لا يقدرون على الاجتهاد، لكنهم لإحاطتهم بالأصول، وضبطهم للمأخذ، يقدرون على تفصيل قول مجمل ذي وجهين، وحكم محتمل لأمرين، منقول عن صاحب المذهب، أو عن أحد من أصحابه المجتهدين برأيهم ونظرهم في الأصول والمقايسة على أمثاله ونظائره من الفروع، وأصحاب التمييز، الذين يفرّقون بين القولين الأقوى والقوي والضعيف، وظاهر الرواية، وظاهر المذهب والرواية النادرة.

واعلموا - أكرمكم الله - أنّ الفتيا لا تُبنى على الرأي المجرد، ولا على مجرّد إنهاء مرحلة دراسية محددة، وإن تسمّى صاحبها "عالمًا"، بل لا بدّ للمفتي أن يكون بصيرًا بمصادر الفتوى وكتبها المعتمدة.

فأوّل ما يُرجَع إليه، المتون المعتمدة التي تُعدّ مفاتيح الفهم، كمتن القدوري، ونور الإيضاح، والوقاية، وكنز الدقائق ونحوها، وهي أساس النظر والاستيعاب.

ثم تأتي الشروح الجليلة، التي تُفصّل المجمل وتُوضح المبهم، كشرح الهداية على بداية المبتدي، والبحر الرائق على الكنز، وفتح القدير، والبناية، والعناية وغيرها من ذخائر الشروح الحنفية.

ثم يُنظر في الحواشي المعتمدة، التي قعّدت الأصول وحرّرت المسائل، وأعظمها في عصرنا: "رد المحتار" لابن عابدين، وهو حاشية على "الدر المختار"، وبه يُفتى عند المتأخرين.

ثم تُرجَع المسائل إلى كتب الفتاوى المعتبرة، كـ"الفتاوى الخيرية"، و"الفتاوى الهندية"، وغيرها مما جمعه العماء المحققون عبر العصور.

ثم الفتوى تنقسم إلى قسمين: الفتوى العرفية، والفتوى الحقيقية.

أما الفتوى الحقيقية، فهي التي يُصدرها المفتي بعد دراسة تفصيلية للمسألة ومعرفة الأدلة التفصيلية من الكتاب والسنة وأقوال الفقهاء، كما كان يفعل الإمام الفقيه أبو الليث السمرقندي رحمه الله، فهو من أهل الفتوى الحقيقية.

وأما الفتوى العرفية، فهي التي يُصدرها المفتي بناءًا على معرفة قول الإمام فقط، دون النظر أو الاطلاع على دليل المسألة، وقد كان هذا النوع شائعًا في عصور كثيرة، وفي زماننا هذا، لا

يتجاوزون غالب المفتين حدّ الفتوى العرفية، ولا يبلغون مرتبة الفتوى الحقيقية.

ثم اعلموا أن قول الإمام ينقسم إلى قسمين أيضًا: قول صُوري (ظاهر)، وقول ضروري (ضمني).

أما القول الصُوري، فهو ما جاء على وجه البيان الصريح الظاهر، لا يحتاج إلى تأويل ولا توضيح.

وأما القول الضروري، فهو ما يُفهم ضمنًا من الكلام، ولا يُذكر على سبيل التصريح، وقد يكون هذا القول الضروري مقدّمًا على القول الصريح إذا تعارضت المصلحتان أو تغيرت الأحوال.

فلو قيل: "أكرموا زيدًا، فإنه رجل صالح"، ثم قيل في موضع آخر: "لا تكرموا الفاسق"، وبعد مدة ظهر أن زيدًا قد فسق، فلا يصح أن يُقال: "كيف لا تكرمونه؟ ألم تقولوا سابقًا أكرموه؟"

لأن القول الضروري (لا تكرموا الفاسق) مُقدَّم على القول الصُوري السابق، وهذا من دقائق الفقه التي لا يدركها عامة الناس.

ولهذا نقول لمن يعترض: هلمّ إلى حلق العلم، واجلس في مجالس الفقه، وتعلّم الأصول والضوابط، حتى تعلم أن الفقه بحر لا يسبر غوره إلا الراسخون، وأن دقائقه لا يدركها من لم يتدرّب على الغوص في لُججه.

فتدبّروا -رَحِمَكم الله-، أن من دقائق الفقه وخفاياه، ومن مكنوناته العجيبة التي لا يدركها إلا من تعمَّق في معانيه، وتغلغل في أسراره، أن قولَ الإمام نفسه قد يتبدَّل أو يتغيَّر، لا لتساهل أو اضطراب، ولا لضعف أو ارتياب، وإنما لضرورات تفرضها الأحوال، أو حاجات تستدعيها الوقائع، أو أعراف جارية، أو تعاملات مستقرة بين العباد.

وفي أمثال هذه المواضع، قد لا يُفتى بقول الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنه، بل يُفتى بقولِ أحدِ الصاحبين، الإمامين الجليلين: أبي يوسف، ومحمد بن الحسن الشيباني، رحمهما الله تعالى، فيظنُّ الجاهل، أو قليل البضاعة في الفقه، أن في ذلك خروجًا عن المذهب، أو تمردًا على الأصول، فيقول متعجّبًا: «كيف تفتي بقول الصاحبين وأنت حنفي؟!»

وكما هو معلومٌ في مسألة وقت العشاء، فإن كثيرًا من الناس لا يكونون مستعدّين لأداء الصلاة في الساعة العاشرة والنصف، مع أنّ وقت العشاء يدخل عند العاشرة وِفق مذهب الصاحبين لا وفق مذهب الإمام، فلا بدّ من التحقّق والتجربة أوّلًا: هل الناس يتهيّأون للصلاة في هذا الوقت أم لا؟

وقد جَرَّبنا ذلك، فوجدنا أنّه إذا أُقِيمت صلاة العشاء في

مسجدنا (مسجد الغوثية) متأخّرة، فإنّ كثيرًا من الناس يتركونه ويتوجّهون إلى المساجد التي تُقام فيها الصلاة في وقتٍ مبكر.

فاضطررنا، بناءًا على ذلك، إلى العمل بقول الصاحبين، ولم يكن هذا تهاونًا أو تبديلًا للموقف كما يتوهّم البعض، كلا، فإنّ الأصل في مذهبنا الحنفي هو العمل بقول الإمام الأعظم أبي حنيفة رحمه الله، ما دام الناس قادرين على تطبيقه بلا حرج.

ولكن إذا وقع الحرجُ، وظهرت المشقّة، ولم يَقبل الناس التطبيق، فعندئذٍ يُرجَع إلى أهل الفتوى، لا إلى العلماء الذين لا علاقة لهم بهذا المجال، مهما كانت مكانتهم، فلا أنا ولا الشيخ "خير الدين" ولا "الشيخ يونس"، يصدر الأحكام في الأمور الشرعية بمفرده، وإنما الذي يَفصل فيها هم المفتون الكبار، الذين يجتهدون في ضوء الأصول الشرعية وظروف الواقع للحصول على الحكم الصحيح للمسألة..

فإذا رأوا وتقرّر عندهم أنّ الحال قد تغيّر، وأنّ العمل بقول الإمام صار فيه حرج، أذِنوا حينها بالعدول إلى قول الصاحبين، وهكذا يكون الفقه حيًّا متفاعلًا مع أحوال الناس، وتلك هي رَوْعةُ الفقه وجمالُه، وجمالُ الفتاوى، فعلينا أن نتعلّم ذلك ونتأدّب به.

فالفتوى قد تُبنى على قول الصاحبين أو قول الإمام محمد أو الإمام زفر رحمهما الله، إذا تعذّر الأخذ بقول الإمام، لكن الأصل أن لا يُصار إلى ذلك إلا بعد تقرّر المشقة وصدور الإذن من جمهور المفتين.

وليس كل أحدٍ يُقدم على هذا الشأن الجليل، بل لا يكون ذلك إلا بعد مراجعة كبار المفتين، وأهل الدراية، الذين يُدركون دقائق الفقه، ويُقدّرون المصلحة العامة، ويفهمون روح الشريعة.

فلا يليق بمن لا علم له أن يعترض قائلًا: «لقد كنتم تقولون كذا، ثم عدلتم عنه، والآن تقولون كذا!»

والقاعدة التي عليها المعول، أن الفتوى تبدأ من قول الإمام الأعظم، فإذا استحال التطبيق أو شقَّ على الناس، ولم يُحتمل العمل به، واجتُهِد في النظر، واستُشير أهل الفتوى، جاز التحوّل إلى قول الصاحبين، أو قول الإمام زفر، أو غيرهم من أئمة المذهب، بحسب ما يقتضيه المقام، وتوجبه المصلحة الشرعية.

فاحذروا - رحمكم الله - من التسرّع في الإفتاء، أو الجرأة في أحكام الدين، فإن الإفتاء مقامٌ عظيم، لا يُرتقى إليه بالألقاب، ولا يُنال بالتمنّي، بل بالجِدِّ والمثابرة، والانقطاع للعلم، وملازمة كتب الفتاوى، والمطالعة المتواصلة ليلًا ونهارًا، والتحقيق في

النصوص والمصادر.

ولا بد للمفتي أن يغرق في كتب الفتاوى، وأن يُلازم دراستها ليلًا ونهارًا، وأن يُفني جزءًا كبيرًا من عمره في البحث، والمطالعة، والتحقيق.

وقد سطّر هذا المعنى الإمام الجليل، والمحقق النبيل، المحدث أحمد رضا خان الهندي، حيث وضع للمفتي شروطًا دقيقة، لا تتحقّق إلا لمن غاص في بحار العلم، وأفنى عمره في خدمته.

وانظروا إلى حياة الإمام أحمد رضا، كم من الأسفار قام بها في حياته، ستتفاجؤون إذا علمتم أنّه كان في أغلب الأحوال حبيس بيته، لا يُغادره إلا عند الضرورة القصوى، فإذا دعت الحاجة الملحة إلى السفر، سافر، وإلا فلا.

وقد قال بنفسه: لقد قرأتُ "ردّ المحتار" (الفتاوى الشامية) مرّاتٍ لا أستطيع عدّها.

فاسألوا أنفسكم، كم من الناس في زماننا قرؤوا "الفتاوى الشامية" كاملة؟ بل كم منهم قرأ نصفها؟ بل كم من الناس أتمّ كتاب الصلاة منها؟ عددهم لا يكاد يذكر، ومع ذلك ترى تُطلق ألقاب "المفتي الكبير"، و"فقيه العصر"، و"بحر العلوم"، إلى غير ذلك، على كلّ مَن تسلق منابر العلماء من الجهلة والرويبضة.

ولذلك، أوجّه إليكم هذه النصيحة الخالصة المخلصة، لا تأخذوا الفتوى من كلّ أحد، بل خذوا الفتوى ممن تحقّقت أهليته، وعُرِف بعلمه وورعه، وأقرّ له أهل العلم والمعرفة بالرسوخ والتمكن.

وفكروا، عندما تريدون شراء منزل، أو تواجهون قضيّة دنيوية تحتاج إلى محام، هل تذهبون إلى أيّ شخص؟ كلّا وألف كلّا، بل تبحثون عن أمهر المحامين، وتدفعون المال بسخاء للمحامي البارع، خشية أن يضعف موقفكم القانوني.

فكذلك الحال في الدين، إذا نزلت بكم نازلة، أو عرض لكم أمرٌ شرعيّ، فاطلبوا الفتوى من العالم المتخصّص، المفتي المحقّق، لا من الرجل المتعالم أوالمفتي المتطفّل، حتى لا يضعف موقفكم عند الله.

فإنّ الفتوى دين يتلقّى، ومسؤوليّة عظيمة تؤدّى، وليست منصبًا ولا لقبًا يتزيّن به.

وبناءا عليه، فإني قد بيّنت لكم هذه المقدمات الضرورية والأساسيات الفقهية لتعلموا أن نقل الفتوى أو الاستدلال بها ليس أمرًا هيّنًا، بل هو مقام يحتاج إلى علم، وتأصيل، وفهم دقيق.

وبعد هذه التوطئة النافعة، والمقدمة الجامعة، فإني سننتقل

بكم إلى مقام أرفع، وهو بيان منزلة الإمام الجليل أحمد رضا خان الهندي في ميدان الفقه والإفتاء، وسنعرض بعضًا من درر فتاواه، معتمدين في ذلك على فهمنا القاصر، ومستضيئين بنور علمه الباهر، داعين الله أن يُوفقنا للحق والصواب، وأن يجعل ما نقول ونكتب حجةً لنا، لا علينا.

ومن دلائل العناية الربانية، والعطايا الألهية التي وُهبت للإمام أحمد رضا خان الهندي، أنه أُهّلَ لميادين الإفتاء وهو لم يزل في فجر شبابه، إذ أصدر أولى فتاويه في سن الثالثة عشرة وعشرة أشهر، فجاءت تلك الفتوى صائبةً، راسخةً، محكمةَ التعليل والتحجج، فشهد بصحتها والده الإمام العلامة المفتي نقي علي خان، وأجازه رسميًّا بالتصدّي للإفتاء.

ورغم هذه الكفاءة المبكّرة، ظل الإمام ناشبًا في سلك التأدّب العلمي، عاكفًا على الاستئناس برأي والده مدة سبع سنين، حتى خاطبه والده يومًا بقوله: "لا حاجة بعد اليوم إلى عرض فتاويك عليّ"، وكأنّما أعلن له استقلالية الرأي مع تمام التكوين.

ومع ذلك، ظلّ الإمام ملتزمًا بأعلى درجات التوقير والتبجيل، فلم يُصدر فتوى واحدة ما دام والده حيًّا، إلا بعرضها عليه؛ أدبا وتواضعا، ووفاء لمن ربّاه علما وفكرا وروحا.

لقد نهل الإمام أحمد رضا من ينبوع فقه والده، العلّامة نقي علي خان، أحد أئمة أهل الكلام، وسادة الفتوى في عصره، أحد عشر عامًا وشهرين وستة عشر يومًا، لم يبرح خلالها عن مائدة التأهيل، ولم يستقلّ بالإفتاء إلا بعد أن تمّ له البناء المعرفي، واستكمل أدوات النظر والاجتهاد.

ثم بزغ نجمُه في آفاق العلم، وسطع سناه من أرض الهند، فصار مفتي شبه القارة الهندية بلا منازع، بل مفتي العالم الإسلامي أجمع، لا ينازعه في إحاطته الفقهية، ودقّة فتواه، واستيعاب مدارك الأحكام، نظيرٌ في عصره.

لم يبلغنا ـ فيما اطّلعنا عليه ـ أنّ الإمام رجع عن فتوى أصدرها قط، وذلك لما امتازت به فتاويه من كمال التحقيق، ورفعة التحرير، وجودة التطبيق، وقوة الدليل، وغزارة الشواهد، ومراعاة العرف، وملاحظة الأحوال، ودقة الاستنباط، وقوة في الترجيح، مع احتياط عال، وجمع بين الدقة والإيجاز، واختيار متقن في الألفاظ، وتعبير رصين عن المعاني والمقاصد.

وهذا كله مغمورٌ بأدب جمّ مع الله عزّ وجل، وعشق عظيم لرسول الله ﷺ، وأنوار تتلألأ من فيض الشيخ عبد القادر الجيلاني البغدادي.

فلننهل ـ إذًا ـ من هذا المعين، ولنغترف من هذا البحر الزاخر، من خلال "العطايا النبوية في الفتاوى الرضوية"، عسى أن نتلمّس قبسًا من روحه الفقهية، وأن نستنير بنور عقله الفذ.

ومن أعظم ما يتميّز به المفتي المحقّق، أنه لا يقف عند ظاهر الأقوال، بل يتغلغل في مقاصدها، ويسبر غورها، ويجمع بينها بما يظهر وحدة المقصود وتنوّع العبارات.

فقد تعترضه مسألةٌ فقهية وردت فيها أقوالٌ متعددةٌ متباينة ظاهرًا، ولكنّ المحقّق لا يرى فيها تضادًا حقيقيًا، بل يوفّق بينها، ويُظهر أن اختلافها اختلاف تنوّع، لا اختلاف تضاد.

ومن أمثلة ذلك، مسألة غسل الأعضاء في الوضوء أكثر من ثلاث مرات، فقد قال فقهاؤنا: يغسل الوجه واليدين والرجلين ثلاثًا، ويستنشق ثلاثًا.

ولكن، لو زاد الغاسل إلى أربع أو خمس مرات، فهل هذا إسرافٌ مذموم؟ هل يُعدّ حرامًا أو مكروهًا؟

هنا نرى أقوالًا أربعة: قال إبراهيم الحلبي والطحطاوي: هو حرام. وقال العلائي المدقق: مكروه تحريمي. وقال ابن نجيم المصري: مكروه تنزيهي. وقال ابن الهمام: خلاف الأولى.

والمسألة واحدة! ولكن انظر كيف تنوّعت فيها التعبيرات،

واختلفت فيها الأوصاف، فهل نقول لمن زاد في الغسل: لقد وقعتَ في الحرام؟ وهو ما لا يشعر به!

هنا يبرز عقل الإمام أحمد رضا، حيث لم يكتفِ بسرد الأقوال، بل جمعها بروح فقيهٍ بصير، فنظر في النية، والعادة، والحال، والسياق.

فقال بتفصيل بديع محكم: إذا زاد الغسل اعتقادًا أنها سنة فهو حرام، وإذا زاد بلا اعتقاد السنة، ولكن بإسراف ظاهر فهو مكروه تحريمي، وإذا زاد لا باعتقاد السنة ولا إسراف معتاد فهو خلاف الأولى.[1]

هذا هو الفقه! هذا هو الجمع بين الأقوال! هذا هو الفهم الصحيح للمقاصد الشرعية!

لقد حوّل الإمام أحمد رضا الخلاف الظاهري إلى مراتب منتظمة، وأظهر أن الحكم يختلف باختلاف النية والقصد، والاعتياد والسياق، وليس مجرد فعل واحد يوصف بحكم واحد مطلق.

فأين مثل هذا الجمع؟ وأين مثل هذا التحقيق؟! إنه الفقه الحي، والعقل الناظر، والمدرسة الرضوية التي ربّت أجيالًا على

---

(١) الفتاوى الرضوية، جـ١، صـ ٧٣٠-٧٦٥.

الورع والعلم، على الجمع والتحقيق، على النص والمقصد، على الحرف والروح.

بل زاد الإمام توضيحًا لمسألة الجواز، فقال بأنه إذا لم يكن في قلب الإنسان وسواس، ولا شك في تمام الغسل، ثم غسل العضو رابعةً أو خامسة بلا اعتقاد السنية، فهذا جائز، ولا يُعدّ مكروهًا، لا تنزيهيًا ولا تحريميًا.

وذلك هو جوهر الاجتهاد الفقهي المنضبط؛ إذ لا يُنزَّل الحكم على الأعيان بإطلاق، بل يُراعى في ذلك مقاصد المكلفين، وسياق أحوالهم، وما يعتادونه، وحالتهم النفسية، والظروف الملابسة لواقعهم.

فبهذا الميزان الدقيق يحرر الإمام القول، ويضع كلًّا في موضعه، فيتبيّن أن اختلاف العلماء في كثير من مسائله، إنما هو اختلاف تنوع في المناهج، لا تضاد في المقاصد، وتباين في العبارات والأساليب، لا في الأصول والمبادئ.

ومن أظهر دلائل عبقرية الإمام أحمد رضا خان الهندي، توفيقه العجيب في رفع ما يُتوهم من التعارض بين النصوص والآراء، وإزالة الإشكال عن الأفهام، بتأنّ علميّ، واستيعاب فقهيّ قلما اجتمع نظيره في فقيه.

وهناك مسألة أخرى كنت في حيرة منها بحيث قال العلماء بأن السجود لغير الله على وجه العبادة كفر، وعلى وجه التعظيم محرم، وهذا كلام محكم.

لكن في المقابل، تروي الروايات الصحيحة أن الصحابة الكرام كانوا يُقبّلون قدم سيدنا رسول الله ﷺ، ولا شك أن تقبيل القدم يستدعي انحناءً ظاهرًا، بل قد يَقرب من هيئة الركوع.

فكيف يجتمع هذا مع الحكم الفقهي بتحريم الانحناء لغير الله؟! أليس في هذا تناقض ظاهر بين الفعل المنقول والحكم المعقول؟

وهنا تجلّى نور فقه الإمام، فأخرج الكلام من حيز التعارض إلى فضاء التوفيق، وقال قولً مؤصّلا، جامعا بين دقائق المعاني وجواهر المقاصد: بأن الأصل هو الغاية، لا الوسيلة، فإن كانت الغاية مشروعة، كانت الوسيلة تبعًا لها مشروعة، وإن كانت الغاية محرمة، فوسيلتها محرمة.

وتقريب ذلك بالمثال النفيس بأن من قصد بيتًا مباحًا كالمنزل، فركوب السيارة إليه جائز، وإن قصد مكانًا محرّمًا، فركوبه إليها يكون حرامًا، لأن الوسائل تأخذ حكم المقاصد.

كذا تقبيل القدم إن قصد به إظهار المحبة الشرعية

والاحترام الجائز، واستند إلى فعل الصحابة رضي الله عنهم، فهو جائز، وأما الانحناء بقصد السجود أو التعظيم الديني، فهو محرم.[١]

فبذلك انكشف الإشكال، وزال التوهم، وظهر الفرق بين نية الحب والتعظيم الديني، وبين الشكل الظاهري، فكان توفيقه هذا نموذجًا حيّا على عمق فقهه، وسعة اطلاعه، وقوة إدراكه.

وما امتازت به "الفتاوى الرضوية" من خصائص فريدة، أنها لم تقتصر على الجواب المجرد، بل تأسست على منهج علمي رصين، يبدأ بالاستدلال من كتاب الله عز وجل، ثم من السنة المطهرة، ثم بإيراد أقوال الأئمة ، مع نقل موسّع وتحقيق دقيق، حتى تتجلى المسألة في أبهى صورها.

وهذا الترتيب من القرآن، فالسنة، ثم أقوال العلماء، قلما يُرى بهذا الوضوح والالتزام حتى في كتب كبرى كمثل "الفتاوى الهندية" وغيرها.

ومن الأمثلة الجليلة على هذا المنهج، مسألة إعفاء اللحية وتحريم حلقها دون القبضة، فألّف الإمام رسالة بديعة بعنوان: "لمعة الضحى في إعفاء اللحى"، عنوان تنضح أنواره بالهداية، جمع فيها ثماني عشرة آية قرآنية، واثنتين وسبعين حديثًا، وستين نقلًا

---

(١) الفتاوى الرضوية، جـ٢٢، صـ ٣٦٩-٣٧٠، كتاب الحظر والإباحة.

من كلام العلماء، مما يدل على سعة علمه، وحرصه على تحقيق المسائل بالدليل من كل وجه.

وكذا لما بين الإمام أحمد رضا حرمة السجود التعظيمي، وألف كتبًا في غيرها من المسائل، فأغرقها بالأدلة، حتى إنه في مسألة واحدة ساق أكثر من مائة دليل.

ولا نقول هذا مدحًا فارغًا، أو عاطفةً محضة، بل هي شهادة حق، يراها من نظر في الفتاوى الرضوية، فإن كل مسألة فيها تُعرض بتحقيق، وتُعالج باستقصاء، ويُذكر فيها الدليل تلو الدليل، بطريقةٍ قلّ أن تُرى في غيرها من كتب الفتاوى.

ومن دلائل إمامته الحقة، أن فتاويه لم تكن حبيسة عصره، بل تجاوزت زمانه، واستمر نفعها في أجيال متعاقبة، كما هو حال فتاوى الأئمة المجتهدين، التي تُبنى على أصول متينة، ومقاصد راسخة، فتظل حيةً تُهتدى بها في كل نازلة.

ومثال ذلك، أن الحوالة المالية في زمانه كانت تتم عبر الحوالة البريدية (MONEY ORDER)، وكانت الجهات الرسمية تأخذ عليها رسومًا زهيدة، فثار التساؤل: هل هذه الرسوم ربا أم أجرة؟

فقال بعض العلماء من الديابنة: بل هو ربا محرم، لا يجوز التعامل به، ومنهم رشيد أحمد الكنكوهي– وهذا نقل من كتبه،

لا اتهامًا عليه.

لكن الإمام أحمد رضا، بنظره الثاقب، رد هذا التوهم، وبيّن أن المبلغ المدفوع ليس فائدة ربوية، بل هو أجرة خدمة يقدمّها البريد، لأنه بمنزلة الأجير المشترك، يستحق الأجرة على عمله.[١]

وساق الإمام في ذلك أدلة كثيرة من كلام الفقهاء، حتى أقام الحجة، ودفع الشبهة.

واليوم، وبعد مضي أكثر من قرن، يتعامل الناس بـ "ويسرتن يونين" (WESTERN UNION)، وبطريق "ريا"(RIYA)، وغيرها من شركات التحويل، وتُؤخذ رسوم نظير الخدمة.

فمن أراد منع ذلك من الديابنة، فعليه أوّلًا إغلاق محلات الحوالات المالية التي يديرها أتباعها، لأن العلماء الذين قالوا بالتحريم هم من الديابنة.

والحق أن هؤلاء يعني الديابنة أيضًا رجعوا إلى القول الصحيح الذي أصّله الإمام أحمد رضا، وساروا على فقهه، فصاروا ينتفعون بفتواه، ولو لم يُصرّحوا بذلك.

فليعلم إذًا كلُّ من يعمل في شركات التحويل أن الإمام أحمد رضا الهندي، هو من فتح هذا الباب المباح قبل أكثر من مائة

---

(١) الفتاوى الرضوية، جـ٨، صـ٢١٤، رسالة "المنى والدرر لمن عمد مني آدر".

وخمسين عامًا، فأحلّ لهم مورد رزقهم، ورفع عنهم الحرج، وأراهم أن الحلال بيّن، والمحرّم بيّن، وما بينهما يزول بالنظر الدقيق في علل الأحكام ومقاصد الشرع.

ومن أعجب الشواهد على سَعة فقه الإمام، وامتداد أنوار فتاواه، ما نراه في هذا العصر من قضايا مستجدة، نَشأت مع تطور الزمن، وتعقّد الطب، وتداخل الأحوال، فإذا بها قد حُسمت في صفحات "الفتاوى الرضوية" منذ أكثر من قرنٍ من الزمان، كأنّ الإمام رحمه الله كان يقرأ المستقبل بعين بصيرته!

ومن ذلك، مسألة شائعة في هذا العصر، يعاني منها كثير من الناس، وهي ضيق التنفس، مما يضطرهم إلى استعمال أقنعة التنفّس (SLEEP MASKS) خلال النوم.

فإذا جاء شهر رمضان، تساءل بعضهم: هل لبس هذا القناع (أجهزة التنفس) في الليالي العرفية يكون مفطرا؟

فكان الحكم أنها مفسدة للصيام، لكن فقهاء العصر توصّلوا بعد البحث الفقهي والتعرف على طبيعة الأجهزة من قبل الخبراء، إلى كونه غير مفطر للصيام.

فانظروا! كم من مسألة مستجدة في عصر التكنولوجيا، قد أجاب عنها إمامٌ عاش في عصر القلم والدواة!

وهذا دليل ساطع على أنّ فتاواه ليست مؤقّتة بزمن، ولا مقيّدة بعصر، بل هي مصابيح نور تهدي الحائرين، ومنارات علم يسترشد بها الباحثون، إلى يوم الدين.

وإنّ من أعجب العجائب، أن المسائل التي تُشغل الأذهان، وتحار فيها العقول، وتُعقد لها المؤتمرات، وتُنفق عليها الأموال الطائلة، قد تجد جوابها الجليّ، واضحًا، محرّرًا، في مجلّد من مجلّدات "الفتاوى الرضوية"، مما يدل على قوة فقهه، وسَعة نظره، وعمق إدراكه لفقه النوازل والمستجدات.

فكم من سؤال يُطرح اليوم، أمثال: ما حكم إدخال منظار المعدة في حالة الصيام؟ ما حكم التأمين بأنواعه؟ كيف تُزكّى الأسهم والتحويلات البنكية؟ متى يُرفع جهاز الإنعاش عن المريض؟

نقول للناس: ارجعوا إلى فتاوى الإمام، تجدوا الجواب أو قواعد الجواب، مدوّنةً هناك، بخطّه الشريف، قبل أن تخترع هذه الأجهزة!

كتبه وحده، لا لجنة عنده، ولا مؤتمرات، وإنما هي فطنة الإمام، وسَعة اطّلاعه، ودقة استنباطه.

تأمّلوا في واقعنا اليوم، عند حدوث مسألة جديدة، تُقام

الندوات، وتُوجَّه الدعوات، وتُجمع اللجان، ويُدعى فيها عشرات المفتين والباحثين، وتُرصد الميزانيات، وقد تمرّ أشهر بل سنوات، ثم لا يُتوصّل إلى فتوى قاطعة أحيانا.

أمّا الإمام أحمد رضا، فكان ينفرد بالجواب، ويفصل في النوازل، في سطور معدودة، بدقّة متناهية، وقواعد متقنة، بلا صخب المؤتمرات ولا ضجيج المجالس!

وعلى سبيل المثال: المريض الموضوع على جهاز الإنعاش، متى يجوز رفع الجهاز عنه؟ هذا سؤال يُعقد له مؤتمر كامل في العصر الحديث، لكن الإمام أحمد رضا الهندي أجاب عنه في دقائق، وحده، وفق قواعد رصينة، دون حاجة إلى حشد المؤتمرات!

أليس هذا من إحسان الإمام أحمد رضا خان علينا؟ لقد حلّ أكثر من مائة مسألة معاصرة في زمانه، من غير أن يأخذ من أحد درهمًا واحدًا!

واليوم، نحن بحاجة إلى عشرات المؤتمرات، ومئات من الآلاف من الروبيات، لحلّ مسألة واحدة! ومع ذلك، لا تُحلّ دائمًا!

بالله عليكم! كم من ندوة فقهية تكلف خمس مائة ألف من الروبيات، وكم من مشقة في جمع المفتين، وقلّ من يعرف أهمية هذه الندوات، وأقلّ من ذلك من ينفق عليها!

أما الناس، فإنهم ينفقون في الدنيا ببذخ وسعة، لكن حين يُطلب منهم الإنفاق على نشر كتب الإمام أحمد رضا باللغة الأردية، أو الإنجليزية، أو العربية، حينها يُعرضون ويترددون!

وإذا قيل لهم، تعالوا نساعد رجلا فقيرًا، تسارع عشرة أشخاص للمساهمة – وهذا خيرٌ لا ننكره-، لكن إذا قيل: نطبع كتابًا للإمام أحمد رضا؟ أو نُترجم الفتاوى الرضوية إلى الإنجليزية أو العربية؟ فلا نجد من يتقدّم.

مع أن هذا الكتاب يبقى نافعًا لمدة مديدة، ويستمر أجره لمن شارك في نشره، بينما الطعام يُؤكل، والمال يُفنى.

ألا تعلمون أن الإمام أحمد رضا فتح لنا أبواب الحلول، وجعلنا نستغني عن كثير من الاجتهادات المتخبطة؟ فهذا ليس إحسانا فقط، بل هو ميراث علميّ عظيم، فمن لم يشكر الناس لم يشكر الله.

فيا أهل السنّة! إن أردتم بقاء السنّة، وإن أردتم سلامة إيمان أولادكم، فأنفقوا أموالكم في مواضعها الشرعيّة.

أنفقوا أموالكم في طباعة كتب الإمام أحمد رضا، في عقد المؤتمرات العلميّة، في تعليم الأجيال الحديثة علم الفقه والعقيدة، فإن لم نفعل اليوم، فمتى؟

أيها الأحبّة في الله! إن الإمام أحمد رضا خان، لم يكن مجرّد فقيه أو مفسّر أو محدّث، بل كان بحرا زاخرا، موسوعة حية قلّ نظيرها في الزمان.

لم تقتصر فتاواه على مسائل الفقه فقط، بل لامست أطراف العلوم الحديثة كالسِّياسة والفيزياء والكيمياء، والمسائل في الطبّ والرياضيات وحتى في الأمور الدقيقة كأنواع الحجارة وما يصحّ بها التيمم وما لا يصحّ.

فمن أراد أن يرى أنوار البصيرة، وكنوز التحقيق، ودقّة الاستنباط، وقوة البيان، فليدخل عالم "الفتاوى الرضوية"؛ فإنه يرى هناك علما لا يقدر بثمن، وهدى لا يُطفأ نوره، وحكما محكمة كأنّها نزلت للتوّ من السماء.

يقول بعض الناس: لماذا تكثرون من ذكر الإمام أحمد رضا؟

فنقول: لأن من تعلّق بهذا الإمام، وتمسّك بمنهجه، فوالله! لا يُفتن في دينه، ولا يُضلّ عن سنّة نبيه ﷺ، بل يبقى على مذهب الأئمة الأربعة، على طريق الإمام الأعظم أبي حنيفة، ويثبت على العقيدة الأشعرية الماتريدية، لا ينحرف إلى رفض، ولا ينزلق إلى "توهّب"، ولا يذوب في فرق الضلالة.

لم يكن الإمام ممّن غلا وتشدّد، بل كان صوت الشريعة

الصافي، ومرآة السنّة النقية، ومن أحبّه لله، وتمسّك به، فقد تمسّك بالسُّنة.

وإن أخرجتم الإمام أحمد رضا من مناهجكم، فلن تبقى السنّية على ما كانت، بل تصبح تقليدًا بلا علم، أو تصوّفًا بلا شريعة، أو تشدّدًا بلا محبة.

فوالله! لا يُلزمك أحد أن تكون مريدًا لأحد أهل بيته، ولكن لا تترك يد الإمام أحمد رضا، فهو من أبواب النجاة، ومفاتيح الهداية، وأسوار السنّة، فمن أبغضه اليوم، ربما يُبتلى غدًا بالفتنة في دينه، والعياذ بالله.

لقد كان الإمام مثالًا يُحتذى في الأدب العلميّ، والتحقيق المنهجيّ.

فلم يكن يردّ على المخالف حتى يتحقق أهو من أهل السنة؟ أم من أهل البدعة؟

ومن مواقفه الجليلة تلك، أنه بلغه جوابٌ عن مسألة دينية كتبه رجل اسمه "عمر"، فظنّه الإمامُ أحدَ علماء السنّة، فلم يعجّل في الردّ، بل أرسل برقية إلى صدر الأفاضل الشيخ السيد نعيم الدين المرادآبادي ليستوثق منه.

فلما علم أن المجيب ليس السنّي المعروف بل مبتدع ضال،

قال الإمام: "الحمد لله! لم يُخطئ رجلُنا".[١]

وهذا الموقف يعلّمنا ألّا نتسرّع في إصدار الأحكام على العلماء، بل نتحقّق أولًا، ثم نتناقش، فإن لم يُجْدِ النصح، يُردّ عليه بعلمٍ وأدبٍ دون تجريحٍ أو إساءة.

فمنهج الإمام أحمد رضا في الردّ، يتلخّص في التثبّت ، فقبل أن يكتب ردًا، يتأكّد من هو القائل، وفي التعامل مع أهل السنّة بلينٍ ورحمة، فإن أخطأ أحدهم، نصحه أولًا، ولم يُشنّع عليه.

وعدم الانزلاق إلى السبّ والشتم، فكانت ردود الإمام علمية رصينة، قائمة على الدليل، بعيدة عن الهوى والانفعال.

وفي زماننا هذا، زمن الفتن، ووسائل التواصل، وسرعة النشر، نحن أحوج ما نكون إلى هذا المنهج من التثبّت، والتحقّق، والنصح قبل الرد، واحترام العلماء، وأدب الخلاف.

فإن أصرّ المخالف على باطله، فليكن الردّ بالحجّة، لا بالهجوم، وبالعلم لا بالتشهير وأسلوب الجهل.

لقد ردَّ الإمام أحمد رضا خان أيضا في بعض المسائل الشرعية على أجوبة بعض علماء أهل السنة التي لم تكن مستوفية لضوابط

---

(١) "حالات زندگي" للمفتي أحمد يار خان النعيمي، صـ ١٤٥-١٤٦.

الفقه وأصوله، أو كانت مخالفة للأقوال المعتمدة المفتى بها، ولكنه لم يشتم أحدًا قط، بل كان ردُّه بالحجج والبراهين العلمية.

ليس من الإنصاف أن يُقال إن الإمام أحمد رضا فقيه الهند فقط، فقد كانت الأسئلة ترد إليه من المدينة ومكة، ومن أفريقيا وأوروبا، ومن الهند وباكستان وبغداد وسائر الحواضر الإسلامية.

وفتاواه تدلّ على سعة علمه، ودقّة فهمه، وغزارة حفظه، وقوّة استحضاره، حتى أصبح بحقٍ مفتي الأمة الإسلامية في زمانه.

ومن الظلم والجهل أن يُختزل علمه وفكره في حدود جغرافية الهند فقط.

وحينما نقول شيئًا، تغضبون منّا، مع أننا لا نقول إلا ما قاله الإمام أحمد رضا وأفاده في مؤلفاته، فإن كنتم تسمّون أبناءكم "أحمد رضا" على اسم الإمام، فلماذا تعترضون على أقواله؟! فإذا كتب الإمام أن هذا العمل بدعة أو حرام، فلماذا لا تتركون هذا العمل المحرَّم؟!

نعم، إن وُجد خلاف بين الإمام أحمد رضا وبعض كبار علماء أهل السنة، فقد يُعذر الإنسان، فالاختلاف بين العلماء قد يقع.

لكن إذا اتفق الإمام أحمد رضا وجميع علماء أهل السنة

على عدم جواز شيء، ثم أنتم لا تقبلون ذلك، بل وتشتموننا.

فلا بأس! نحن نصبر على الشتائم، لكننا لن نترك فكر الإمام أحمد رضا، وسنستمر في نشره والدعوة إليه، سواء أعجب ذلك الناس أم لم يعجبهم، وسواء استمعوا إلى خطبنا أم لم يستمعوا.

هذا هو منهجنا، وهذا هو طريقنا، وسنبقى عليه إلى أن نلقى الله؛ لأننا تمسكنا بالإمام أحمد رضا، ولم نتمسك به إلا بعد دراسة وتأمّل، فوجدنا أن التمسك به يعني التمسك بالغوث الأعظم الشيخ عبد القادر الجيلاني، والتمسك بولي الهند الشيخ خواجه معين الدين الأجميري، وقبل كل شيء، التمسك برسول الله ﷺ، ومن ثم نيل رضا الله عز وجل.

وإنّ الإمام أحمد رضا، ما زلنا ننتفع بفتاويه إلى يومنا هذا، وسنظل ننتفع بها إلى يوم القيامة، فلا بد من نشر "الفتاوى الرضوية" في جميع أرجاء العالم، بترجمتها إلى اللغة الإنجليزية والعربية، وينبغي على أصحاب الأموال أن يسهموا بأموالهم في هذا المشروع العظيم، لكي تنتشر فكرته السنية المباركة في العالم أجمع.

وليعلم الناس أن الإمام أحمد رضا لم يكن مروّجًا للبدع، بل كان مجاهدًا في القضاء عليها، ناشرًا للسنة، ولذلك قال أحد

العلماء بعد قراءة تحقيقاته مبينا أحاسيسه بالأبيات الأردية:

"إنّ هذا الوادي الذي يسيل بالعلوم والمعارف، هي ليست إلا علوما ومعارف للإمام، وذلك الجبل العظيم المليء بالدر العلمية كـ جبل هملايا،أيضا ينتمي للإمام أحمد رضا.

وكلّ ناحية من النواحي المنظور إليها خافضة رافعة، تجدها منسوبة إلى الإمام أحمد رضا، ومعمورة بعلومها ومعارفها ومستفيدة من مناهلها ومواردها العلمية."

وأضاف قائلا: بأنه قد كتب العلماء الآخرون كثيرًا في علوم ومعارف الدين، لكنّ كل ما كتب في هذا القرن وينبغي أن يعتد به ويفتخر، فهو مختص بالإمام أحمد رضا خان الحنفي الهندي فحسب.

وحقًا إنّ هذا الأمر مختص بالإمام أحمد رضا وحده، ولا يشاركه فيه غيره لا من قريب ولا من بعيد.

إنّ كتب الإمام تُطبع اليوم في البلاد العربيّة، وعندما يقرؤها العرب يُصابون بالدهشة من علمه.

فقد جاءني الحاج الدكتور شبير مع أحد شيوخ العرب، فقدّمتُ إلى الشيخ كتابًا من كتب الإمام أحمد رضا، فلما بدأ يقرأه قال: "ينبغي أن يكتب شرح هذا الكتاب"، ومن هنا ظهر له مقام

الإمام أحمد رضا وعلوّ مرتبته العلميّة.

ولم يكتب الإمام في علم واحد فقط، بل كتب في علوم كثيرة ومتنوّعة.

أسأل الله تعالى أن يمنّ عليّ وعليكم بالمحبّة الصادقة لهذا الإمام العظيم.

وأختم كلامي بوصيّة من وصايا الإمام أحمد رضا فقال الإمام: إذا أردتم تقوية أهل السنة فعلى العلماء أن يكونوا متّحدين، ويجب على الكل أن يتحمّل المتاعب والمشاقّ من أجل الدين، وأن يسعى في نشره.

كما أن على الأغنياء من أهل السنّة أن ينفقوا أموالهم في سبيل الله، كما ينفقونها في شؤون الدنيا، فليبنوا المدارس والمعاهد الكبيرة، وليدعموا الطلبة ويوفّروا لهم المنح الماليّة، حتى نُخرّج جنودًا للدين وجنودًا للسنّة، ويبقى ركبُ الدين سائراً إلى الأمام.

فإنّ الأصل هو الدين، فإذا لم يكن الدين فلا قيمة للدنيا، لأنّ الدنيا زائلة، نعم، إذا اجتمع الدين والدنيا فنحن فائزون إن شاء الله.

نسأل الله تعالى أن يرزقني وإياكم محبّة الإمام أحمد رضا، وأن يغفر لنا ذنوبنا، آمين.

الإمام في عيون كبار علماء السنة

الحمد لوليّه والصلاة والسّلام على نبيه وعلى آله وأصحابه المتأدبين بآدابه.

أما بعد! فأعوذ بالله من الشيطن الرجيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

صدق الله مولانا العظيم.

إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا.

اللّٰهُمَّ صل على سيدنا ومولانا محمد معدن الجود والكرم وآله وصحبه وبارك وسلم.

سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ.

أيها السادة الفضلاء، والحضور النبلاء!

نحن اليوم في رحاب دار فضيلة الشيخ الحافظ المقرئ محمد شفيع –حفظه الله تعالى– إحياءً لذكرى إمام من أعلام الإسلام، وعَلَم من أعلام العلم والبيان، الإمام أحمد رضا خان الهندي –

عليه من الله الرحمةُ والرضوان-.

وقد اعتاد الشيخ محمد شفيع- جزاه الله عن الدين خير الجزاء- أن يُحيي هذه الذكرى العطرةَ منذ سنين طوال، فأحيا الله به القلوب، ونشّط به الهمم، وعمّ نفعه في أرجاء البلاد.

وها هو اليوم، يجود من ماله، ويبذل من جهده، فيطبع على نفقته الخاصة كتابًا مباركًا يتناول سيرة هذا الإمام الجليل.

وما يميّز هذا السفر المبارك أنه قد صيغ في قالب السؤال والجواب، تسهيلًا لفهم حياة الإمام وسيرته الزاخرة بالمآثر والفضائل.

ولا عجب، فإن من وراء هذا الجهد المبارك غايةٌ سامية، وخدمةٌ علميةٌ جليلةٌ، استحق بها مؤلفُه أن يُكرَّمَ برحلة زيارة الحرمين الشريفين، جزاءً له على صنيعه المبرور.

ونحن من جهتنا، نتقدم بخالص التهاني والتبريكات لفضيلة الشيخ محمد شفيع -أبقاه الله ذخرًا- على هذه الجهود الطيبة، سائلين المولى -جل وعلا- أن يجعلها في موازين حسناته، وأن يرزقه دوام التوفيق والقبول.

أيها الحضور الكرام!

إن الإمام أحمد رضا، لم يكن عالمًا كبقية العلماء، بل هو

ممن اصطفاهم الله لتجديد الدين وإحياء السنة في زمن الغفلة.

فإن سأل سائل: ما الدليل على كونه مجدّدًا مختارًا؟ قلنا له: إن الأمة لم تجتمع على ضلالة، وقد أجمعتْ على فضله وجلالته، وشهد له بذلك علماء العرب والعجم، واتفقت كلماتهم على علمه ومكانته، وهذا الإجماع هو في حقيقته شاهدُ صدقٍ على أن الله بعثه مجدّدًا لهذه الأمة.

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إنَّ اللّٰه يبعثُ لهذه الأمةِ على رأسِ كلِّ مائةِ سنةٍ من يجدِّدُ لها دينَها."[١]

ومن دلائل تجديده واصطفائه، قوته الحافظة؛ فقد كانت للإمام أحمد رضا خان، قوةُ حافظةٍ خارقة تَحَيَّر منها العلماءُ والأكابر.

ومِن الشواهد على ذلك كما ذكره العلامة حسنين رضا ابن أخ الإمام أحمد رضا، في كتاب "سيرت أعلى حضرت": "أنَّ العلّامةَ المحدث وصي أحمد السُّورتي–رحمه الله– زار الإمام أحمد رضا مرارًا، وكان يكبره في السنّ بنحو عشرين سنة، ولم يكن من تلامذته، ولامن أسرته، ومع ذلك كان الإمام يذهب إليه، ويأتيه

(١) سنن أبي داؤود، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، رقم الحديث:٤٢٩١.

هو أيضًا؛ وقد ذَكَر المؤرخون أن الإمام سافر إلى بلدة "پيلي بهيت" (PILIBHIT) بولاية الشمال أكثر من أي بلدٍ آخر، وذلك لأجل لقاء هذا المحدث الكبير.

وفي أحد المجالس، وكان ذلك في زمنِ حضور صدر الشريعة الشيخ أمجد علي الأعظمي رحمه الله، أملى الإمام أحمد رضا على صدر الشريعة عبارةً طويلةً من كتاب "فتاوى قاضي خان" عن ظهر قلب، وكان المحدث وصي أحمد السورتي حاضرًا، فدهشَ دهشةً عظيمة!

فلما ذهب الإمام إلى صلاة المغرب، وخرج من الباب، قال المحدثُ الجليل لصدر الشريعة أن يأتي بكتاب "فتاوى قاضي خان" من الداخل!

وبعد الصلاة لما طوبق بين الكتاب وما أملاه الإمام، فإذا بالعبارة التي أملاها الإمام موجودةٌ فيه حرفًا حرفًا!

فُوجِئ الجميعُ بدقة المطابقة بينهما، وكأنّ الإمام كان يحفظ كتب الفقه عن ظهر القلب!.[١]

ومن تلك الأدلة، سرعته في المطالعة، فسرعة المطالعة تعني أن يقرأ الإنسانُ خمس مائة صفحة في يومين، بينما يقرأ آخر نفس

(١) "سيرت أعلى حضرت" للشيخ حسنين رضا البريلوي، صـ ١٢٤-١٢٥.

المقدار في شهر كامل، فالذي يقرأ خمس مائة صفحة في شهر لا يطالع في شهر إلا كتابا واحدا، أما من يقرأ هذا القدر في يومين فبإمكانه أن يطالع في الشهر كتبًا كثيرة.

وكان من عجيب ما يُذكر في هذا الباب، ما حصل يومًا لمّا زار الإمامُ أحمد رضا خان -رحمه الله- الشيخَ المحدث وصي أحمد السورتي، فطلب منه كتابًا يسمّى «تنقيح الفتاوى الحامدية»، وهو كتاب ضخم مكوّن من جزأين يشتملان على ثمان مائة صفحة تقريبًا، فقال له: أرجو أن تعيرني الكتاب حتى أقرأه وأعيده.

فإذا بالإمام أحمد رضا يضطر للمبيت عنده تلك الليلة، فاستغلّ ليله بمطالعة الكتاب، وقرأ جميع صفحاته الفتاوى الحامدية في تلك الليلة الواحدة، فلما أصبح وأراد الرحيل، أعاد الكتاب إلى الشيخ المحدث وصي أحمد السورتي.

فقال له الشيخ: هل غضبت مني؟ إذ كنتُ قد قلت لك إنه ليس عندي إلا نسخة واحدة من الكتاب، فأجابه الإمام قائلاً: لا، ليس الأمر كذلك، بل قد قرأتُ الكتاب كلّه الليلة الماضية، والحمد لله.

وأضاف الإمام قائلاً: سأظل أذكر ألفاظ الكتاب مدة ستة أشهر، وأما مضامينه ومعانيه فستبقى عالقة في ذهني مدى الحياة،

إن شاء الله تعالى.[١]

إن سرعة مطالعة الإمام أحمد رضا، بلغت حدًّا عجيبًا، إذ قرأ في ليلة واحدة كتابًا ضخمًا يحتوي على قرابة ثمان مائة صفحة! وذلك في ليلة من ليالي الهند، التي هي أقصر من ليالي بعض البلدان الأخرى، فلا يُدرى: أكانت ليلة شتاء أم صيف؟ فإن كانت في فصل الصيف، فهي أقصر بكثير، فكيف استطاع أن يُنهي هذا المجلد الكبير، وطوى هذا السفر العظيم في ساعات معدودة! فسبحان من وهبه هذه الطاقة العجيبة!

وكان والد الإمام عالِمًا، وكذلك جده، فكان في بيتهم مكتبة علمية عامرة منذ البداية، فشبَّ الإمام بين الكتب والدفاتر، وبدأ في سنٍّ مبكرة مطالعة كتب الفقه الحنفي، وصار مفتيًا وهو لم يتجاوز الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره! ولا شك أنه في هذه السن بدأ دراسة كتب الفقه، ومع هذه السرعة العجيبة في المطالعة، **فكأني به يكون قد طالع جلّ ذخائر الفقه الحنفي.**

فيا لها من موهبة! ويا له من نبوغ! ويا له من عقلٍ وقّاد، جمع بين الحفظ والفهم، وسرعة المطالعة، وعمق الإدراك!

---

(١) "حيات أعلى حضرت"، جـ١، صـ ٣٨.

لقد خدم الإمام أحمد رضا الدينَ بخدمات متنوّعة، كالتدريس والخُطب والإفتاء، غير أنّ أعظم خدماته وأبقاها كانت بالقلم والكتابة والتأليف.

وإنّ أولياءَ الله يختلفون في طرائق نصرتهم لدين الله، فأحدهم تفتح نظرته أبواب الهداية، وتحيي الأرواح الجامدة، كما كان الحال في القطب الرباني، الشيخ معين الدين الجشتي الأجميري، الذي كانت نظرته تسبق كلامه، وتؤثر في الأرواح قبل الأسماع.

وأما الإمام أحمد رضا، فكان فتحه بالكلمة، لا بالنظرة، وإحياءه بالتحرير لا بالتسيير، وسلاحه القلم لا القدم، وكأن الله تعالى سخّره ليكون لسان هذا العصر وبيانه، يدفع الشبهات، ويردّ البدع، ويبيّن معالم الدين بوضوحٍ لا غموض فيه.

وبين مؤلفاته ومؤلفات غيره من المحققين فرقٌ ظاهر، وبعد شاشع، وبونٌ عميق، كما في السطور التالية.

أيها الإخوة! استمعوا إلى قصة عجيبة من قصص التحول والهداية التي أحدثتها سطور الإمام أحمد رضا خان الهندي.

كان العلامة المفتي أحمد يار خان النعيمي- رحمه الله تعالى- ، في بدايات طلبه للعلم قد وقع في أيدي قومٍ ذوي بدعٍ وانحرافٍ

في المعتقد، فتأثّر بأفكارهم، حتى تولّد في ذهنه تصورٌ خاطئ عمن يحبون الإمام أحمد رضا ويجلونه، فكان يظن أنهم قومُ ختمٍ ودعاء فحسب، لا علم عندهم، ولا فكر، ولا دراية! وظنّ أن الانتساب للبريلوية يعني الجهل والسطحية!

ثمّ انتقل للدراسة إلى الجامعة النعيمية بمراد آباد، فرآه أستاذه الجليل، صدر الأفاضل السيد نعيم الدين المراد آبادي –رحمه الله–، وتأمل في حاله، فعرف موطن الداء، ووضع له الدواء، لم يُجادله كثيرًا، ولم يُكثِر عليه الكلام، بل ناوله رسالةً صغيرة من مكتبته، وقال له: "اقرأ هذه الرسالة، ثم تعال."

وكانت هذه الرسالة كتابًا صغيرًا للإمام أحمد رضا بعنوان: "عطايا القدير في حكم التصوير."

فقرأها الفتى الباحث، وكانت المفاجأة الكبرى! فقد وجد نفسه أمام بحرٍ زاخر، أمام عالمٍ واسع المعرفة، دقيق الفهم، شديد الحجة، قويّ الاستدلال، رأى سيلًا من النقولات، وتوثيقًا متينًا للمراجع، وتنظيمًا محكمًا في العرض، فعرف لأول مرة من هو الإمام أحمد رضا، وتغير فكره تغيّرًا كليًا، بل انقلبت نظرته إلى الدين والعلم والعقيدة رأسًا على عقب.

قال المفتي أحمد يار خان -رحمه الله-: "لقد غيّرت هذه

الرسالة مجرى حياتي الفكرية والعقدية، وأحدثت في ذهني ثورة فكرية، ولم أعد أعتقده عالما كبيرا فحسب بل صار هو سيدي وإمامي، ومرجعي في الدين."(١)

فيا للعجب! بضع ورقات من قلم الإمام، كانت سببا لهداية عقل وفتحِ قلب!

هكذا كان الإمام أحمد رضا خان –رضي الله عنه–، يؤلّف رسالةً، فيُؤلِّف بها عقلًا جديدًا، يخطّ كلماتٍ، فتصبح نورًا، يبدّد ظلمات الشك والضلال، يقيم الحجة، فيقيم بها صرحَ الإيمان في القلوب.

أولئك هم ورثة الأنبياء، أحياهم الله بالكلمة، وأحيا بهم الأمم.

أيها السادة النبلاء، ويا عشّاق السُّنة!

تأمّلوا، رعاكم الله، كيف انقلب حال العلامة المفتي أحمد يار خان النعيمي –رحمه الله– بعد أن قرأ كتابًا واحدًا للإمام أحمد رضا –رضي الله عنه–، لقد كان في بداية أمره متأثّرًا بأهل الأهواء، فصار بفضل الله ثم بفضل سطور الإمام عَلَمًا من أعلام السنّة، يذود عنها بلسانه وقلمه، ويُفنّد الشبهات، ويؤلف المؤلفات،

(١) "حيات سالك"، صـ ١٤٤.

ويملأ الدنيا نورًا من علمه وعقيدته.

كتابٌ واحدٌ كان كافيًا لتبديل المصير، لإعادة بناء الفكر والعقيدة من الجذور، فكيف لو قرأ المجلدات؟!

كلّا، إن كتب الإمام أحمد رضا ليست مجرد صفحات تُقرأ، بل أنوارٌ تهدي، ومصابيح توقظ، وسُطور تُحيي، تفتح القلوب قبل العقول، وتغرس العقيدة الحقّة في أعماق الأرواح.

وإليكم قصة أخرى من قصص التاريخ المدهشة، على تأثير مؤلفات هذا الإمام الجليل:

إن الأسد الهصور لأهل السنّة العلّامة حشمت علي خان، كان أبوه من نُوّاب مدينة لكهنؤ، ومن مريدي العارف بالله الشيخ هداية رسول -أحد خلفاء الإمام أحمد رضا-، وكان قد أرسل ابنه حشمت علي للدراسة في مدرسة ديوبند، فتأثر بأفكارهم، حتى بلغ به الحال أن يسبّ أهل السنّة ويطعن فيهم، وكان ذلك ممّا آلم والدته وجعل قلبها في الحزن العميق.

فتوجهت الأم المفجوعة إلى شيخها، العلّامة هداية رسول، تشكو إليه حال ابنها.

فما أجابها بكلمة، بل أعطاها بصمت العارفين كتاب "تمهيد الإيمان" للإمام أحمد رضا، ومعه بعض كتب أخرى، وقال

لها: "احتفظي بها فإنّ وقتها سيأتي."

فكانت الأمّ الصالحة تعتني بالكتب، وتخشى عليها من التلف والرطوبة، فكانت تُعرضها في الشمس أحيانا لتحافظ على سلامتها.

وذات يوم، دخل حشمت علي البيتَ، فرأى تلك الكتب، فتناول "تمهيد الإيمان"، وجعل يقلّب صفحاته، فما إن قرأ منها القليل حتى صاح قائلًا:

"صدق! صدق الإمام فيما كتب!" ثم قرأ حتى أتمه، وخرج من مجلسه وكأنه وُلد من جديد، دخل على والديه قائلًا: لقد كنتُ في ظلمةٍ حالكة، وفي جهلٍ مُطبق، وهذه الرسالة أنارت بصري وبصيرتي، وعرفتُ من خلالها طريق الحق، لا أريد أن أبقى في مدرسة ديوبند، بل أريد أن أرحل إلى مدينة بريلي، فهنا طريق النور، وهنا رجال الصدق.

ثم قال قولًا يهتزّ له الوجدان: لو لم تكن هذه الرسالة، لما استقامت آخرتي، ولما عرفت طريقي، فقد غيّرتني هذه الأوراق وجعلتني عاشقًا صادقًا لرسول الله ﷺ. (١)

---

(١) "سوانح العلامة هدايت رسول الرامفوري"، صـ ٣٣،٣٤، ٤٥.

فانطلق بعد ذلك يدعو إلى الحق، وينشر النور، ويُرشد الناس إلى العقيدة الصحيحة، فاهتدى به خلق كثير، وصار مربّيًا مخلِصًا، ومصلحًا ربّانيًّا، ومجددًا لروح المحبة المصطفوية في آلاف من القلوب.

ألا ترون –يا سادة– كيف يُخرج الله من كتاب واحد أمة من الغفلة؟!

فمن هنا، نقولها بثقة ويقين: ينبغي علينا أن نُقبل على كتب الإمام أحمد رضا قراءة ودراسة، فهي كتبٌ تُجدد الإيمان، وتُعمر القلوب بحبّ رسول الله ﷺ، وتُرسّخ العقيدة الصحيحة، وتثبت الإنسان على صراط الحق.

أما أنا –وأقولها عن تجربةٍ وصدق–: فما ضاق صدري يومًا، ولا تكاثرت همومي ساعةً، إلا وفتحت "الفتاوى الرضوية"، وجلست أمام دفتيها، فوالله ما شعرت بعدها بضيق، ولا رأيت للهَمّ موضعًا، وكأنّ ما فيها من التحقيقات العلمية الرضوية دواءٌ إيماني، وبلسمٌ روحي، يسكب في القلب السكينة، وفي النفس الطمأنينة.

وكلّ ما ذكرته آنفا من آثار الإمام أحمد رضا إنّما هي من الأزمنة الماضية، أمّا الآن فأُقدّم بين أيديكم مثالًا من عصرنا

الحاضر يبيّن مكانة كتب الإمام وقوّة تأثيرها حتى خارج شبه القارّة الهندية.

وهاكم شاهداً من أرض الكنانة، مصر العزيزة المؤمنة والمطمئنة، حيث يسكن أحد الباحثين المعروفين، وهو العالم الجليل الدكتور خالد ثابت المصري، ولا يزال حيّا يُرزق، وقد كتب كتابا نفيسا في ترجمة الإمام أحمد رضا، سمّاه "إنصاف الإمام"، وتُرجم هذا الكتاب لاحقا إلى اللغة الأردية أيضا.

فالدكتور خالد ثابت المصري ممّن يُحبّ التصوّف، وخلال زيارته للهند لحق بالجماعة التبليغية، ظنًّا منّه أنّها جماعة صوفية، ولكنه عندما سألهم عن "البريلوية"، أجابوه بأنّهم قومٌ ضالّون.

ولمّا رجع إلى مصر، التقى بطالب هندي من ولاية "كيرلا"، فسأله عن البريلوية: هل هم ضالّون؟ فقال الطالب له: هل قرأتَ كتب الإمام أحمد رضا؟ قال: لا. فقال: سأعطيك بعضًا منها لتقرأها.

فأتى إليه ببعض مؤلّفات الإمام، فقرأ كتابًا أو كتابين، ثم وقع على ديوانه الشهير "حدائق بخشش" الذي تُرجم إلى اللغة العربية، فقرأه، فما إن انتهى من النظر فيه حتى تيقن أن هذا رجل عاشق لرسول الله حقّا، ولا يُعطي الله نعمةَ عشق النبيّ إلا لمن

كان على الحقّ.

ثم واصل المطالعة في كتبه، فإذا به يجد عقيدة سليمة، وإيمانا متينا، تستقرّ عليه القلوب وتطمئنّ إليه الأرواح، فكتب في شأن الإمام أحمد رضا الهندي كتابا كاملا أسماه "إنصاف الإمام"، وقد ذكر فضيلته قصة تعرّفه على الإمام أحمد رضا الهندي بشيء من الإسهاب في كتابه هذا.[1]

وممّا سبق يتبيّن لنا أنّ كتب الإمام أحمد رضا، إذا نُظِر إليها بعين الإنصاف، فإنّها تهدي الضالّ، وتفتح بصيرة الجاهل، وتُنير درب من تاه في الظلمات.

فمن كان في ضلال وظلمة، فإنّ في صفحات كتب الإمام نورا وهداية ويقينا، لا يُدركه إلا من طلب الحقّ بقلب صادق ونظر منصف.

الإمام أحمد رضا ليس مجرّد عالم من علماء السنّة، بل هو نائب غوث الورى في هذا العصر، وهذا اللقب لم يمنحه له تلامذته ولا أبناؤه ولا مريدوه وأتباعه، بل منحه إيّاه العارف بالله السيّد جماعت علي شاه، أحد كبار العلماء في السلسلة

---

(١) إنصاف الإمام، صـ ٢٨-٢٩.

النقشبندية، والذي كان أكبر سنًّا من الإمام، وقد قرأ هو والمحدّث السورتي على شيخ واحد.

يقول السيّد جماعت علي شاه: رأيتُ في المنام سيّدَنا الغوث الأعظم عبد القادر الجيلاني، فقلت له: يا سيّدي، من هو نائبك في هذا الزمان؟ فقال لي: الإمام أحمد رضا خان في مدينة بريلي بالهند.

فاشتقتُ إلى معرفته، وسافرتُ من موضع "علي فور" في باكستان إلى مدينة بريلي في الهند، فلمّا دخلتُ عليه، رأيتُه منشغلًا بالكتابة والقراءة، فسلّمتُ عليه، فصافحني وأجلسني كعالم من العلماء، فلمّا عَلِم أنّي من آل البيت، قام من مجلسه، وترك ما في يده، وقال بأدب عظيم: كيف أجيب رسول الله ﷺ يوم القيامة إذا لم أكرِم السيّد حقّ الإكرام!

ثم قال لي الإمام: يا سيّدي، حدّثني عن رؤياك التي جاءت بك هنا، فتعجّبتُ، إذ لم أخبره بشيءٍ عنها، فعلمتُ أنّه من الذين يبصرون بنور الله.

فبدأتُ أُحدّثه بالرؤيا، فقال الإمام: دَعْ عنك هذا، إنّه من حظّك أن رأيتَ الغوث الأعظم، وأمّا أنا، فلا أستحقّ أن أراه، لكنّي الآن أنظر إلى من رآه.

ثم قبّل يدي وقدمي، تواضعا منه، مع أنّه كان الإمام الموقّر،

والعالم الأكبر، والعاشق الأطهر.[١]

ومن كبار الأولياء في السلسلة النقشبندية بباكستان، الشيخ شير محمد الشرق فوري رحمه الله، وقد رأى في المنام سيّدنا الغوث الأعظم الشيخ عبد القادر الجيلاني، فقال له الغوث: أحمد رضا نائبي.

فقال الشيخ شير محمد: لما سمعتُ هذا، اشتقتُ لزيارة نائب غوث الورى، فسافرتُ إلى مدينة بريلي، وتشرفتُ برؤية الإمام أحمد رضا.

ثم قال: رأيتُ (في حال اليقظة أو في رؤيا صادقة) أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان خلف ستر، يعلّم الإمام أحمد رضا، ثم الإمام كان يعلّم الناس ما تعلّمه من النبيﷺ.[٢]

هاتان الروايتان تدلّان بوضوح على أنّ الغوث الأعظم قد اختار الإمام أحمد رضا نائباً له، فهل تفهم من هو نائب غوث الورى؟ وما هو المقام الذي يعنيه الصوفية بهذا اللقب؟

إذا عدت إلى مكتوبات الإمام المجدد الشيخ أحمد السرهندي، فستجد أنه بيّن أنّ مقام الغوثية انتقل من علي

---

(١) "إمام أحمد رضا اور رد بدعات ومنكرات"، ص ١٤٦.

(٢)"إمام أحمد رضا اور رد بدعات ومنكرات"، ص ١٤٧.

المرتضى رضي الله عنه إلى أئمة أهل البيت، ثم إلى الإمام الحسن العسكري، ثم إلى الغوث الأعظم الشيخ عبد القادر الجيلاني، وأنّ هذا المقام لا يُعطى أصالة إلا للإمام المهدي رضي الله تعالى عنه، وأما من نال هذا المقام في الأزمنة فهو نيابةً عن الغوث الأعظم.

فمن هو نائب غوث الورى؟ هو الغوث الأعظم في زمانه، وهو الذي تُنسب إليه رئاسة الأولياء، وتفيض الأنوار الإلهية من خلاله إلى سائر الأولياء.

والحمد لله، فقد أعطى الله الإمام أحمد رضا هذا المقام الجليل، فكان غوثَ زمانه، وصوفيَّ وقته، ونائب غوث الورى حقا.

فمقام الغوث في التصوف مقام عظيم، إذ لا تقوم الدنيا إلا به، وكل الأولياء الذين يستفيدون الفيض إنما يستمدونه من بركاته.

فهذا هو مقام الإمام أحمد رضا، وهذا هو معنى نيابة غوث الورى؛ فلم يكن هو مجرد محدث، ولا مجرد فقيه، بل كان غوث الوقت، وسيداً في طريق التصوف أيضا.

إنّ المرتبة التي منحها الله تعالى للإمام أحمد رضا كنيابة غوث الورى، إنما ظهرت آثارها في حياته كما ظهرت في حياة الغوث الأعظم الشيخ عبد القادر الجيلاني من قبل، لا سيّما في خصلة الاستغناء بالله.

فالاستغناء هو أن لا يُلقي الإنسان بالا إلى كبار أصحاب الأموال، وأغنياء الدنيا، ولا يتعلّق بهم قلبا ولا طلبا، وهذه الخصلة كانت بارزةً في سيرة الغوث الأعظم، وقد ظهرت أيضاً في سيرة الإمام أحمد رضا ببركته.

انظر إلى هذا الموقف الذي حصل مع رجل يدعى نظام الحيدر آبادي، وكان رجلاً غنيّاً ذا أموال طائلة، وكان لو شاء الإمام أحمد رضا أن يذهب إليه، لأقام له جامعةً ضخمة في مدينة بريلي، ولكن لم يكن الإمام من الحاملين بهذا الطبع.

لقد أرسل نظام الحيدر آبادي رسالة إلى الإمام يقول فيها: يا حضرة الإمام، أود أن آتي إليك، أو أن تأتي إليّ، فإن لم ترغب في المجيء، فأرجو أن تأذن لي بالزيارة.

فما كان من الإمام إلا أن ردّ عليه قائلاً: إنّ الوقت الذي منحه الله لي، إنما منحه لطاعته، لا لاستقبال الأمراء والجلوس معهم، ولا لأن أقف احتراماً لسيادتهم، هذا الوقت هبةٌ من الله، فأصرفه لله".

ومن المواقف التي تُظهر غيرته الإيمانية ومحبته الراسخة للصحابة الكرام، ما حصل مع نواب رام فور، بحيث كان النوّاب يظهر الانتماء إلى أهل السنة، وكانت له صِلات أيضا مع الرافضة

من الشيعة، الذين كانوا يسبون الصحابة، وكان النواب يؤيد بعض البدع كـ"التعزية" ونحوها.

والتعزية هنا: هي بناء مجسم يُرمز به إلى ضريح الإمام الحسين رضي الله عنه، وتُمارَس حوله طقوس لا أصل لها في الدين، فيها تشبّه بأهل البدع، وغلوّ، وخرافات، ومنكرات ظاهرة.

فقد أرسل النوّاب رسالة إلى الإمام أحمد رضا، يرجوه فيها إما أن يزوره بنفسه، أو أن يأذن له بالمجيء إليه.

فردّ عليه الإمام بجواب شديد واضح، قائلاً: أيها النواب، إنّك قد اتخذت من أعداء الصحابة أولياء، وتدعم البدع كالتعزية ونحوها، وأنا لا أريد أن ترى وجهي، أو أن أرى وجهك.

فهذا هو الإمام أحمد رضا، لا يرضى أن يرى هو وجه من يوالي أعداء الصحابة، ولا يرضى له أن يرى هو وجهه، فأين هم اليوم من ينتسبون إلى الإمام، ثم يُهادِنون المبتدعة، بل يجلسون معهم ويشاركونهم المجالس؟!

فليتعلّم المشايخ والعلماء من هذا الموقف، أنّ الإمام كان شديدًا في الحق، غيورًا على الدين، لا يُجامل في العقيدة، ولا يساوم على حُبّ الصحابة والولاء لهم.

كان الإمام أحمد رضا من أصدق العاشقين لرسول الله ﷺ،

ومن أشدّ المحبّين لأهل بيته الطاهرين، لا سيّما السادة الأشراف، ذرّية النبي الكريمﷺ.

وقد نُقل أنّه إذا أقام مجالس المولد النبوي الشريف، كان يأمر بتوزيع الحلوى على الحاضرين، وكان يُعطى كل واحد نصيبًا، غير أنّ السادة الكرام يُعطَون ضعف ما يُعطى غيرهم، بأمر خاصّ منه، تكريمًا لهم وتعظيمًا لشأنهم.

وذات مرة، أخطأ أحد الموزّعين فأعطى أحد السادة نصيبًا واحدًا فقط، فلما بلغ الخبر الإمام أحمد رضا، استدعى الموزع وقال له: "إياك أن تكرر هذا الخطأ! نحن نعطي السادة نصيبين، لأنّ ما نوزّعه في هذه المجالس ليس منّا، بل هو صدقة آل محمد صلى الله عليه وسلم، فكيف لا نكرّم أبناءهم ؟"

ثم أمر أن تُؤتى بصينية ممتلئة بالحلوى، وقدّمها للسيد الجليل بكل أدب واحترام قائلاً: تفضّلوا يا سيدنا، فهذا حقّكم، وعذرًا عمّا بدر منّا. (١)

فهل رأيتم في التاريخ من فعل مثل هذا؟ هاتوا إن كنتم صادقين، أروني إمامًا عَظَّم السادةَ بهذا القدر، واحتفى بسيد عامّ كأنه سيدُ قريش، إن وجدتم له مثيلًا فجيئوني به، وإن لم تجدوا

(١)"إمام أحمد رضا اور تصوف"، صـ ٤٥، ٤٦.

فاعلموا أن الإمام أحمد رضا كان آية من آيات الله في محبة آل بيت رسول الله ﷺ.

إن من السنة في غسل اليدين قبل الطعام أن تغسل أولا أيدي الصغارقبل الكبار، كي لا ينتظر الكبار، وهذه هي السنة.

ففي دعوة أُقيمت في مدينة بيلي بيت، حضر الإمام أحمد رضا والحافظ المحدث وصي أحمد السورتي، وقبل أن تفرش المائدة، جاء المضيف بآنية الغسل من طشت وإبريق، ليغسل الضيوف أيديهم، فأشار الحافظ المحدث -حسب العرف الجاري- إلى المضيف أن يغسل يد الإمام أولًا، فقال الإمام فورًا: أنت محدّث، وأعلم بالسنة، وقرارك هذا حق، وهو لائق بمقامك، لأن السنة إذا اجتمع القوم أن يُبدأ في غسل الأيدي بالصغير، ويُؤخر الكبير، كي لا يضطر الكبير إلى الانتظار بعد الغسل، وبعد الفراغ من الطعام يُبدأ بالكبير أولًا، لأن السنة كذلك، فإن بدأتُ الآن، فبعد الطعام لا بد أن تبدأ أنت.

يقول السيد محمد المحدث الكچهوچهوي وكان حاضرًا في تلك المائدة: فلما سمع الحافظ المحدث كلام الإمام، مد يده وجذب الطشت نحوه ليغسل يده أولًا، فتبسم الإمام وقال: العمل خلاف قولك لا يليق بمقامك أيضا، وهذا المشهد الجميل كلما

يحضر في ذهني أستشعر لذته من جديد.[١]

انظر كيف كان الإمام أحمد رضا يحترم المحدّث السورتي، فكان لا يكرم السادة فقط، بل يكرم أهل العلم أيضًا، لم يكن ينظر إلى الناس من حيث النسب فقط، بل من حيث العلم كذلك.

وكذلك إذا جاء السيد علي حسين الأشرفي الكچهوچهوي، كان الإمام يقوم بتعظيمه واحترامه، وقد قرأت في كتب التاريخ أن الإمام لم يكن يستمع إلى خطبةٍ من لم يدرس كتب المناهج النظامية السائدة للدراسة الدينية، ولكن السيد علي حسين الأشرفي -مع أنه لم يدرس تلك الكتب- كان عالمًا من طراز فريد، حتى إن الإمام قال: أنا أستمع إلى موعظته بشوق.

وهذا يدل على علمه العظيم، لأن الكلام في مجلس الإمام أحمد رضا لم يكن سهلًا، بل لم يكن أحد يتكلم بسهولة أمام المفتي الأعظم بالهند الشيخ مصطفى رضا خان النوري، أو تاج الشريعة الشيخ أختر رضا خان الأزهري، فكانا يوقفان المتكلم أو الخطيب عند كل جملة وجملتين، فكيف الأمر بمجلس الإمام؟

وهذا يظهر أن الله تعالى منح السيد علي حسين الأشرفي علمًا لدنيًا، فكان الإمام أحمد رضا، وهو بحر في العلم، يستمع إلى

---

(١) حيات أعلى حضرت، جـ١، صـ ١٣٥-١٣٦.

موعظته بمحبة.

وكان للإمام موضع خاص للجلوس لا يجلس فيه إلا من يحترمه كثيرًا، فإذا جاء السيد علي حسين الأشرفي، كان الإمام يكرمه، ويجلسه على ذلك المقام الخاص.

لقد كان هناك احترامٌ متبادلٌ بين الجانبين؛ فكان النسب الشريف محلّ تعظيم، وكان العلم موضع توقير، وكان السيّد علي حسين الأشرَفي يجلّ الإمام أحمد رضا، كما كان الإمام يوقّر السيّد علي حسين الأشرفي، فكان كلٌّ منهما يُعلي قدرَ الآخر ويعرف له منزلته.

ومما تقدم يتبيّن لنا أن الإمام أحمد رضا، قد خدم الدين خدمات جليلة، وعلّم الناس تعظيمَ العلماء، وتوقيرَ السادة الأشراف، وإجلالَ الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين.

وحريٌّ بنا -نحن المسلمين- أن نطالع سيرته العطرة، ونستضيء بهديه في حياتنا العملية، ونجعل من منهجه منارًا لطريقنا، فإن فعلنا ذلك، فبإذن الله نفوز بسعادة الدارين، ونُكتب من المفلحين في الدنيا والآخرة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الإمام أحمد رضا والتصوف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

الحمد لوليِّه، والصلاة والسّلام على نبيه، وعلى آله وأصحابه المتأدبين بآدابه.

أما بعد، فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [سورة يونس:٦٣]

صدق الله العلي العظيم.

أيها السادة والسادات! تعالوا، نعطر فمنا أولا بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وليصل عليه ﷺ كل واحد بصوت مرتفع ندي: اللّٰهُمَّ صلِّ على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ.

أيها الحضور الكرام!

إن الذكرى السنوية الثانية بعد المائة لرحيل الإمام أحمد رضا خان الحنفي الهندي، سَتُظل أنوارها وتشرق علينا أسرارها فقد بدأ يقترب موعد انعقادها السنوي، وبهذه المناسبة الجليلة، تفضل بعض الإخوان الكرام والصفوة الأعيان بطلب التحدث عن المآثر العلمية للإمام أحمد رضا، فوقع اختياري على موضوع قلمّا يُطرح على موائد الحفلات والمؤتمرات؛ مما جعلني أن أُفرد له هذه الكلمة الموجزة، ألا وهو "الإمام أحمد رضا والتصوف".

فيكون من الخطأ البَيّن اختزال هذا العلم البارز في زاوية ضيقة، فهو لم يكن محدثًا فقط تُشدّ إليه الرحال في علوم الرواية والدراية، ولا فقيهًا مجردًا يصول ويجول في ساحات الاجتهاد والفتيا، بل كان من أئمة السلوك، وسادات التربية، ومن كبار أهل التصوف في عصره، جمع بين الشريعة والحقيقة، وبين الفقه والطريقة، وكان بحقّ مرآةً صافيةً لتعاليم الكتاب والسنة.

وسأستهل الحديث ببيان مفهوم التصوف، ثم أُجلِّي شخصية الإمام أحمد رضا في ضوء هذا التعريف؛ ليظهر للقارئ النابه، والمتأمل المنصف، عظمة هذا الإمام في ميدان التزكية والسلوك، كما برز في ميادين العلم والفتوى، وظهر نبوغه في فقه الشريعة وخدمة السنة.

وإذا أُريد الحديث عن مسلكه الصوفي، وذوقه الروحي، فلا غنى عن الاستشهاد بكلمةٍ خالدةٍ من كلمات أحد أجلّ خلفائه، ودعاة الإسلام الكبار، الرحالة الشهير، والعالم النحرير، شيخ الإسلام في إفريقيا وأوروبا، العلامة الشيخ عبد العليم الصديقي الميرتي - طيب الله ضريحه في المدينة المنورة- الذي سُحر بروحانية شيخه، وتأثر أشد التأثر بسلوكه وصفائه، فقال أبيات شعرية أردية:

جو مرکز ہے شریعت کا، مدار اہل طریقت کا
جو محور ہے حقیقت کا، وہ قطب الاولیا تم ہو

أنتَ مركزُ الشريعة، ومدارُ أهلِ الطريقة، ومحورُ الحقيقة، وقطبُ الأولياءِ بلا ريب.

یہاں آکر ملی نہریں شریعت اور طریقت کی
ہے سینہ مجمع البحرین، ایسے رہنما تم ہو

فيك التقت أنهارُ الشريعةِ والطريقة، فصدرُك مجمعُ البحرين، فأنتَ دليل السالكين وقائدٌ بهذا الشأن العظيم.

حرم والوں نے مانا تم کو اپنا قبلہ وکعبہ
جو قبلہ اہل قبلہ کا ہے وہ قبلہ نما تم ہو

اعترف بك أهل الحرم قبلتهم وكعبتهم، فأنت قِبلةُ أهلِ القِبلة،

ومنار الهداية لهم.

عرب میں جا کے ان آنکھوں نے دیکھا جس کی صولت کو
عجم کے واسطے لاریب وہ قبلہ نما تم ہو

أنت من شهدت هذه العيون عظمته وشأنه في العرب، وأنت قبلة أهل العجم، بلا ريب.

علیم خستہ اک ادنیٰ گدا ہے آستانے کا
کرم فرمانے والے حال پر اس کے شہا تم ہو

إن عليم الخاسر سائل مسكين على أعتابك، ويا سيدي إن المنعم عليه والراقي بحاله هو أنتَ لا غير.

ومن التعاريف الجامعة لحقيقة التصوف كما درج عليها أكابر أهل الطريق، ما قاله العارف بالله الشيخ العلامة عبد الوهاب الشعراني رحمه الله في كتابه "الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية" عند معرض حديثه للصوفي الحق: فإن حقيقةَ الصوفي هو عالمٌ عمل بعلمه، أي على وجه الإخلاص.

ثم أكد هذا المعنى بقوله: فلو عمل عالمٌ بعلمه على وجه الإخلاص، كان صوفيًا حقًا.

وأضاف قائلا بأن التصوف هو تصفيةُ القلوب واتباعُ النبي

صلى الله عليه وسلم في الشريعة.[١]

فالصوفي الحق هو ذلك العالمُ العاملُ بعِلمه، الذي صَفَت سريرتُه، وخَلُصَت نِيّتُه لله تعالى، فلا يبتغي بريائه مدحًا، ولا بسُمعته جاهًا، فإذا أخلصَ في علمه وعمله، فهو صوفيٌّ حقيقيٌّ بلا مراء، ولو لم يُعرف بين الناس بزيٍّ أو بنسب.

والتصوف في جوهره هو تصفيةُ القلب من الرذائل، وتزكيةُ النفس من النقائص، واتباعُ النبي صلى الله عليه وسلم ظاهرًا وباطنًا في سائر شؤون الحياة.

وقد عبّر عن هذا المعنى سيدُ الطائفة، الشيخ عبد القادر الجيلاني البغدادي رضي الله عنه، فقال كلمته المشهورة: "أقربُ الطرق إلى الله تعالى: لزومُ قانون العبودية، والتمسكُ بعروة الشريعة."

وقال عن كرامة الولي: "استقامةُ فعله على قانون قول النبي صلى الله عليه وسلم."[٢]

فكرامةُ الولي ليست في الخوارق، بل في أن يكون فعله

---

(١)"إمام أحمد رضا اور تصوف"، صـ ٥.

(٢) "إمام أحمد رضا اور تصوف"، صـ ٦.

مستقيماً على وفق سنة النبي صلى الله عليه وسلم، متمسكًا بأوامره ونواهيه.

فلمّا عرف تعريف الصوفي وتعريف التصوف، تبيّنَ أن الصوفيّ الحقيقيّ هو العالمُ الذي يعملُ بعلمِه بإخلاصٍ.

وإذا ثبتَ هذا الأصل، فإن الطريقَ إلى التصوفِ والسلوكِ يحتاجُ إلى أستاذٍ ومرشدٍ، يُسمّى في عرفِ القومِ: شيخَ الطريقة أو المرشدَ الروحي.

فليس التصوفُ طريقًا يُسلكُ بلا دليل، بل هو مسيرٌ إلى اللهِ تعالى لا بدّ فيه من إمامٍ يُرشدُ ويُقوّمُ ويُزكّي.

ولهذا نقول بأنّها من سنن الله تعالى الجارية أن من أراد الله له المقامَ في هذا السبيل، فإنما يُوصله إليه بواسطة شيخٍ مرشدٍ صادقٍ، قد سلك الطريقَ ووصل، ثم عاد ليرشد غيره.

ودليل ذلك من السنن الإلهية، أنّ الله تعالى بعثَ جبريلَ عليه السلام إلى نبينا محمدٍ ﷺ، مع أن النبي ﷺ لا يحتاجُ إلى أستاذٍ، لكنه لأجل إظهار سنّة الوساطة في التعليمِ والإبلاغِ، جعل الله جبريلَ وسيلةً بينه وبين نبيّه.

فَافْهَمْ مِنْ هَذَا أَنَّ سبيل السلوك والطَّرِيقَةِ إِنَّمَا يُظْهِرُهُ الله تَعَالَى لِلْعَبْدِ عَلَى يَدِ شَيْخٍ مُرْشِدٍ.

فهو سرٌّ من أسرارِ الحق، لا يُفتحُ لبني آدم إلا على يدي من اختارهم الله لهداية الخلق وسلوك الصدق.

وعندما يذهب طالبُ العلم بعد تحصيل العلومِ الظاهرةِ إلى مجالسِ الصوفية وأربابِ التربيةِ الروحية، فإن الصوفية يتعاملون معه على حالِه الباطني، لا على مجردِ ظاهرِ علمه.

فالذين يفدون إلى مشايخ الطريقة من أهل العلم ينقسمون إلى صنفين متميزين:

صنفٌ قد ظهرت عليه أمارات الصدق، وعلائم التزكية، وسمات الإخلاص، فذاك يُعدّ مؤهلاً لتحمّل أمانة الإرشاد، ويُمنح الخلافة الروحية بلا تردد، لأنه جمع بين علمٍ نافع، وعملٍ صالح، وقلبٍ مُخلِصٍ خاشع، فهو بحقّ صوفيٌّ كامل، قد نضج في مدرسة السلوك، فاستحق أن يكون مُربّيًا بعد أن رُبِّي.

وأما الصنف الثاني، فهو من وفد بعلمه، ولكن نفسه لم تُصفَّ، ولم تُطهَّر من كدر الهوى، فهذا يؤمَر بالمجاهدة والرياضة، حتى تتجلّى عليه أنوار القرب، ويخرج من أسر النفس إلى مقام العبودية الخالصة؛ فإن طريق التصوف ليس بالعلم وحده، بل بالمجاهدة والإخلاص والمراقبة.

فإذا وقفت على هذا الميزان الدقيق، أدركت مقام الإمام أحمد

رضا خان في عالم التصوف، وكيف أنه ارتقى في درجاته من طريق العلم والعمل والإخلاص الكامل، حتى صار في زمانه إمامًا كاملاً، ومربيًا واصلًا، وقطبًا للعارفين.

فهو من الصفوة المختارة من القسم الأول، الذين وهبهم الله المقام الروحي الرفيع من غير طول مجاهدة ظاهرة، ولا رياضات شاقة مشهورة، لأنهم تحققوا بحقائق الشريعة من العلم والعمل، واستكملوا خصال الطريقة من الإخلاص والمراقبة والاتباع، فاستحقوا ذلك المقام بعطاءٍ ربّانيٍّ خالص، لا بكسبٍ بشريٍّ محض.

وليس هذا تقليلًا من شأن المجاهدة، وإنما هو تجلٍّ لقول من قال: ربّ لحظة واحدة من الإخلاص تُدرك بها مقامات المجتهدين في سنين.

فلما تحقق الإمامُ بهذه الصفات، وظهرت عليه آثارُ الاستقامة الباطنة والظاهرة، كان دليلاً على صدق ولايته، وعلو مقامه في التصوف والسلوك، وصدق فيه قول الشيخ عبد القادر الجيلاني: كرامةُ الولي استقامةُ فعله على قانون النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي هذا السياق، أُقدِّمُ نصًّا جليلًا من كلام العارف بالله،

الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله، من كتابه الشهير "الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية".

وقد اطَّلعتُ على كثير مما كُتب عن الإمام أحمد رضا رحمه الله، في جوانب علمه وتصوفه وسلوكه، غير أني قلَّما وجدتُ من استحضر هذا النص النفيس من الإمام الشعراني للإبانة عن مقام الإمام أحمد رضا في طريق التصوف والسلوك.

وقد منَّ الله تعالى عليَّ بأن كنتُ من أوائل من انتبه إلى هذه المطابقة الدقيقة، فكان هذا من فضل الله وتوفيقه، لا من حولي ولا قوتي، وهو فضل لا يُنسى، ومنّة تستوجب الحمد والشكر، وسيأتي النص في موضعه في السطور القادمة بإذن الله تعالى.

قال شيخُنا العلاّمة محمد أحمد المصباحي -حفظه الله- في كتابه "الإمام أحمد رضا والتصوف"- وهو أولُ مؤلَّفٍ خُصِّص لهذا الباب:

"إن العلاّمة عبد القادر البِدَايُوني، وهو من أهل الفهمِ والذوقِ، قال للإمام أحمد رضا - وكان لا يزال في عنفوان شبابه-:

"يا سيدي، عليك أن تتخذ شيخًا ومُرشدًا." فسأله الإمام: "من أتّخذ مرشدًا؟"

فقال له: "اذهب إلى بلدة مارهره الشريفة (بمديرية إيته بولاية

الشمال)، فهناك شمسٌ من شموسِ المعرفةِ قد أشرقتْ، وسترى حين تتلألأ أنوارُه على قلبك، كيف يُفتحُ لك بابُ المقامِ الرفيع."

فأخذ الإمام أحمد رضا والدَه العلّامة المفسّر الفقيه، نقي علي خان، وتوجّه به إلى حضرة السيد آلِ رسول المارهرَوي رحمه الله.

فلما وصلا، وتشرفا بالمجلس، بايعَهما الشيخ السيد آلِ رسول المارهروي، ولم يقل: "ابقوا عندي خمسة أيام، أو عشرة أو أكثر" بل منح الإمام أحمد رضا الإجازةَ في جميعِ السلاسل على الفور، لا في الطريقة القادرية فقط، بل في النقشبندية، والشاذلية، والسهروردية، والجشتية، وغيرها من الطرق.

فلما رأى ذلك حفيدُ الشيخ، وخليفتُه المرتقب، الشيخ نُوري مِيان، تعجّب وسأل: يا جدِّي! ليس من عادتك، أن تمنح الخلافةَ بلا مجاهدة! فكم من العلماء والفضلاء جاءوا إليك، فاختبرتهم، وجعلتهم في زوايا الخلوة، وضربات (إلا الله)، وصيام النهار، وسهر الليل، وتزكية النفس، قبل أن تمنحهم شيئًا! أما هذا الشاب الذي جاء للتو، فلمَ أعطيتَ له كل شيء فورًا؟

فقال الشيخ السيد آلِ رسول المارهروي، (وقبل أن نستمع إلى جوابه المبارك لنسمع أولا ما قاله العارف بالله الشيخ عبد الوهاب الشعراني في هذا الباب) يقول:

وكان سيدي العارف بالله إبراهيم رضي الله عنه يقول: "لو أن العالِم أتى إلى الصوفية خالصًا من العلل والأمراض، لأوصلوه إلى حضرة الله في لحظة."

فإذا جاء العالمُ إلى مجالسِ الصوفيةِ الكاملين، أولئك الذين جمعوا بين علوم الشريعة وعلوم الحقيقة، وقد تطهّر قلبُه من الأمراض الروحية كالحسد، والبغضاء، والتكبّر، وحبّ الجاه، وازدراء الناس، إذا جاء خالي القلب من هذه الآفات، فإنّ الصوفية يُوصلونه إلى حضرةِ الله تعالى في لحظةٍ واحدة.

وكلمة "أوصل" من الفعل: أوصَلَ يُوصِلُ إيصَالًا، أي: جعله يبلغ المقصود، ويصل إلى الغاية.

فلذلك، حين أتى الإمامُ أحمد رضا إلى حضرةِ السيد آلِ رسول المارهرَوي، منحه الخلافة فورًا، بلا تأخير، وبدون مجاهدة، وبدون خلوة.

فسُئل السيد آلِ رسول من قبل حفيدِه الشيخ نُوري مِيان، لماذا خالفت عادتك في هذا؟

فأجاب:"الناسُ يأتون إلينا بقلوبٍ متلوِّثة، فيها دعوى العلم، وفيها حسدٌ، أو تكبّرٌ، أو بغضاء، أو حبٌّ للمنزلة، فنضطرّ إلى تهذيبهم، وتزكيتهم، ومجاهدتهم."

"أما هذا الشاب، فقد جاء بقلبٍ صافٍ كالمِرآة، لا كدرَ فيه ولا مرض، فما احتاج إلى تطهير، بل فقط إلى النسبة، فلما بايعَ نالَ النسبةَ، فأعطيناه كلّ ما يستحقّ."

فماذا نفهم من هذا؟ نفهم أن الإمام أحمد رضا كان من أولئك العلماء الذين تأهّل قلبُهم للسلوك والتصوف قبل أن يدخلوا الطريق، فكان قلبُه طاهرًا، نقيًّا، صافيًا، فأوصله الشيخ إلى المقاماتِ العالية في لحظةٍ واحدة، لأنه كان أهلًا لها.

فَمِنْ هَذَا الْوَاقِعِ نَعْلَمُ عَلَى وَجْهِ الْيَقِينِ، أن الإمام أحمد رضا لم يكنْ مجردَ عالمٍ، ولا محدّثًا، ولا فقيهًا فقط، بل كان جامعًا لتلك الفضائل، ومع ذلك كان من كبار الصوفية في عصره، ومن أولياء الله العظام، بل كان قطبًا أعظمَ في زمانه.

التصوّف ليس كلامًا يُقال، بل هو عمل يُمارس، فليس ميدان التصوّف ميدان خطبٍ وإنشاءٍ وعباراتٍ رنّانة.

ولو بدأتُ أنا (الخطيب) الحديث عن التصوّف، فبحمد الله، أستطيع أن أتكلّم فيه ساعات، وأشرح مقاماتِه ومصطلحاتِه المختلفة.

ولكن الحقيقة أنّ التصوّف لا يُنال بالكلام، بل هذا ليس هو الميزانُ في التصوف، وكثير من العوام يظنون أنّ الشيخَ الذي

يرفع صوتَه في المجالس، ويقول كلماتٍ رنانة، هو أرفعُ الناس مقاما، ولكن هذا ليس بمقياسِ القرب والوصول.

فالحقيقةُ أن التصوفَ لا يُنال بالكلام، بل يُنال بالمجاهدة، ورياضةِ النفس، وقتلِ الهوى، وكثرةِ العبادة، والإخلاصِ التام لله تعالى.

فمن أراد أن يكون من أهلِ الطريق، فعليه أن يَعمَل لا أن يَتكلم فقط.

لم يكن الإمام أحمد رضا صوفيًّا بالأقوال فقط، بل كان صوفيًّا بالفعل، شديدَ الالتزامِ بالشريعةِ، عظيمَ الغيرةِ على أوامرِ الله تعالى ونواهيه.

ومن شدةِ تمسكِه بالشريعة، نذكرُ لكم واقعةً عجيبةً وقعت في آخرِ حياته، ففي سنة ١٣٣٩هـ، قبل وفاتِه بأشهرٍ قليلة، دخل عليه شهرُ رمضان، وكان في مرضٍ يُبيحُ له الفطر والقضاء بعد العافية، أو حتى إخراج الفدية إذا كان متقدّما في السن، كما في كتب الفقه.

لكن الإمام أحمد رضا لم يكن ممن يركبون رخصَ الشريعة، بل كان يسير في طريق العزائم، فكان يُفتي الناسَ بالرخصة، لكنه كان عامل العزيمة لنفسه.

فقال لأهلِ بيته:إنّ حرَّ الصيفِ في مدينة بريلي شديد، وأنا لا أستطيع الصوم هنا، لكني لا أريد أن أستفيدَ من رخصةِ الإفطار، بل أُريد أن أذهب إلى مدينة "نيني تال"، لأنّ طقسَها أبرد، وهناك أستطيعُ الصيام.

فأعدَّ رحلتَه كاملةً، وذهب إلى نيني تال، لا للراحة أو السياحة كما يفعل الناس، بل لأداءِ فرضٍ من فرائضِ الله تعالى.(١)

فكم أنفق في هذه الرحلة؟ لا شكّ أن الآلاف من الروبيات صُرفت، ويكون قد سافر مع بعض العلماء، ومعهم الكتب، والأمتعة، والطعام والشراب، والإقامة الكاملة هناك.

فقد أنفق ضعف قيمة الفدية، ليصوم شهر رمضان، دون قضاء ولا تأخير، فأقامَ في نيني تال شهرًا كاملًا، وصام رمضانَ هناك.

لقد كان الإمام أحمد رضا في جميع حياته ملتزمًا التزامًا كاملاً بالشريعةِ المطهّرة، محبًّا شديد المحبة لفرائضِ الله تعالى.

وما أروعَ تعلّقه بالصلاة! فإنّ من كرامته عند الله تعالى أن صلاةَ الجماعة لم تُقضَ عليه قط، حتى في مرضه الشديد، وسبق أن ذكرتُ هذا القصة، ولكني أعيدُها لأهميتها:

---

(١) "إمام أحمد رضا اور تصوف".

ففي يوم من الأيام، أصابه ألمٌ شديدٌ عند صلاة الظهر، فتوضّأ رغم حالته هذه، لكنه لم يستطع أن يقومَ للصلاة.

فرفع يديه إلى الله، ودعا بإخلاص، واستغاثَ بالحبيب ﷺ، ثم شرع في أداء سنة الظهر، فزال الألم، فلما سلّم، عاد الألم كما كان، فبدأ يصلي صلاة الفرض، فذهب الألم ثانية، وبعد السلام، عاد الألم!

ثم صلّى السنة البعدية للظهر، فاختفى الألم، ثم رجع بعد السلام.

وبعد الفراغ من الصلوات خاطب الإمام ذلك الألم الشديد قائلا: لا بأس أن تلازمني حتى العصر لو شئت يا ألم.[١]

فهذا شأن من كان يعبد الله على مرتبة الإحسان كما في الحديث الشريف: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

فالإمام أحمد رضا كان من أولئك الذين كانوا غارقين في أنوار الحضرة الإلهية، فلا يشعرون بالألم عند الوقوف بين يدي الله.

فهذا إن دل على شيء فيدلّ على أن الإمام لم يكن فقط محدّثًا وفقيهًا، بل كان صوفيًّا عارفًا بالله، من أهل المقامات العالية.

---

(١) "إمام أحمد رضا اور تصوف"، صـ ٥٧.

ومن دلائل تواضعه ما رُوي، أنه في مرةٍ من المرات، كان في محطة القطار، فقدّم إليه بعضُ الناس كرسيًّا مريحًا من غرفة الانتظار، فقال الإمام: "هذا الكرسي فيه نوع من التكبر.

فجلس عليه، لكنه لم يسند ظهره إلى الوسادة عليه، بل جلس متواضعًا، منحنيًا، خشيةَ أن يقع في شبهةِ الترفُّع أو العجب.[١]

فهذا هو شأن الأولياء، تواضعٌ في الظاهر، وسموٌّ في الباطن.

فإذا كان الإمام أحمد رضا على هذا المقام العالي من التواضع والخشوع في العبادة، فما ظنّك بأخلاقه في حياته اليومية ومعاملته مع الناس!

لقد كان يعامل المسلمين جميعا بالعدل والمساواة، لا يفرّق بين غنيّ وفقير، ولا بين وجيه وعاديّ.

ومن ذلك ما رُوي، أنه كان يزورُه في مجلسه حلاقٌ، وكان من عامة الناس، ويزوره أيضًا رجلٌ من الأغنياء والوجهاء.

ففي يومٍ من الأيام، كان الغنيُّ جالسًا عند الإمام، فدخل الحلاق، فأجلسه الإمام بجانب الغني.

فغضب الغنيُّ في داخله ، وكأنّه استكبر أن يجلس حلاق

(١) "إمام أحمد رضا اور تصوف"، صـ ١٥١.

بجانبه.

فلما علم الإمام بهذا، قال: "دعه، فأنا أيضا لا أحبُّ لقاءَ المتكبرين الذين لا يقبلون أن يجلسَ أخوهم المسلم بجانبهم!

ثم قال الإمام: هذا الحلاق مسلم، بغض النظر عن قبيلته أو حرفته، ونحن نحترم إيمانه، وعقيدته، وصلته بالله.(١)

هكذا كان الإمام أحمد رضا يُجسّد أخلاقَ الصوفية الصادقين، الذين قال عنهم مشايخ الطريق بأن التصوفُ كلّه خُلُق، فمن زادَ عليك في الخُلُق، زاد عليك في الطريق.

وكان الإمام أحمد رضا، كما قيل، من أكثر الناس تمسكًا بالشريعة، ومن ألطفهم بالمخلوقين.

وانظروا إلى خشيةِ الإمام أحمد رضا من الله عز وجل، وكيف كان يتحرّى الصدقَ في كل حرفٍ يُقال فيه، بل يخشى أن يُمدح بما ليس فيه، وهذا في زمنٍ أصبح فيه كثيرٌ من الخطباءِ أو العلماء لا يرضون حتى يُلقّبوا "بالشيخ الكبير" أو"الفاضل الجليل"، وإن لم يكونوا جديرين بتلك الألقاب والدرجات.

لقد سمعتم عن اسم العلّامة حشمت علي خان، الذي

---

(١) "إمام أحمد رضا اور تصوف"، صـ١٥١.

يُعرف بـ "أسد أهل السنة"، وله مقام عظيم.

قال:إن الإمام أحمد رضا لقّب ذات مرة في إحدى الرسائل إليه بلقب "الحافظ"، ظنّا من الكاتب أنه إذا كان عالمًا كبيرًا فلا بدّ أن يكون حافظًا.

فلمّا جاءت هذه الرسالة، وكان الإمام مشغولًا ببعض أعماله، فقال: لستُ بحافظ، والناس يلقّبونني بالحافظ!

فاضطرب وقال: "أخشى أن أكون من الذين قال الله عنهم: ﴿يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾.

فإن الله ذكر ذلك كنوع من العقوبة لمن يطلب المدح على شيءٍ لم يعمله.

أيها الإخوة ! افهموا ذلك بهذا المثال، هب أنني لم أقم ببناء مسجد هنا، ثم ذهبت إلى الهند وقلت إنني شيّدت خمسين مسجدًا، فأُثنى عليّ وأُمدَح بما لم أفعله، فهذا ممّا حرّمه القرآن الكريم، وقد جاءت فيه آيةٌ تحمل وعيدًا شديدًا، وهي قول الله تعالى: ﴿يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾.[آل عمران:١٨٨]

ففكّر الإمام أحمد رضا قائلا: أنا لستُ حافظًا، والناس يمدحونني بهذا اللقب، فماذا أفعل؟ عليّ أن أصبح حافظًا للقرآن، لئلّا يقع المسلم في الإثم.

قال أسد أهل السنة العلّامة حشمت علي خان: وكان ذلك في شهر شعبان، فلمّا جاء التاسع والعشرون من شعبان، قال الإمام: إذا توضّأتُ للعشاء، فليأتِ إليَّ أحد ويتلو عليّ جزءً، أو جزءً وربعًا، أو جزءً ونصفًا.

فكان يأتيه أحد، فيقرأ عليه، فكان الإمام يستمع ويعيد عليه، ثم يقرؤه في صلاة التراويح.

قال أسد أهل السنة: وبهذه الطريقة، أتم الإمام أحمد رضا حفظ القرآن كلَّه في صلاة التراويح حتى ليلة السابع والعشرين من رمضان.[١]

وكان هذا في سنة ١٣٣٧هـ، وقد انتقل الإمام إلى جوار الله تعالى في سنة ١٣٤٠هـ، فكان هذا قبل وفاته بثلاث سنوات.

فلما سمع الإمام هذه الآية الكريمة: ﴿يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾، ارتعد وخاف، مع ما له من مقامٍ عالٍ في التصوّف ومرتبةٍ ساميةٍ في الولاية.

وكان إمامًا كبيرًا في مسلك التصوف، ومع ذلك، لمّا لُقّب بـ"الحافظ"، ولم يكن حافظًا للقرآن آنذاك، خشي أن يكون ممن يُحبّون أن يُمدَحوا بما لم يفعلوا، وهي صفةٌ مذمومةٌ في نظر

---

(١) "إمام أحمد رضا اور تصوف"، صـ ٥٨.

الشريعة، لا يحبّها الله تعالى.

فقال الإمام: لستُ حافظًا، وقد نُسب إليّ هذا الوصف، فلا بدّ أن أُصبح حافظًا للقرآن، حتى لا أُمدَح بما لم أعمله.

وبهذه الطريقة، أتمّ حفظ القرآن الكريم في سبعٍ وعشرين ليلة.

ولو حسبنا المدة التي صرفها في الحفظ، لكانت نحو ٢٧ ساعة فقط، فاليوم يحتوي على ٢٤ساعة، فالإمام أتمّ حفظ القرآن في أقلّ من يومٍ وربع، وهذا وهو في عمر ٦٣ أو ٦٥عامًا.

فما أعجبَ قوة حفظه في هذه السن، إذ العادة أنّ ذاكرة الإنسان تضعف مع التقدّم في العمر، لكنّ الإمام رضي الله عنه – رغم تقدمه في السن – بلغ هذا المقام العالي، وهذا يدلّ على صفاء قلبه، وبركة وقته، وتوفيق الله له.

وبهذا تظهر جليًا سعة صفاء التصوف عند الإمام، فإنه لم يُرضِه أن يُنسب إليه ما ليس فيه، فرفض أن يُدعى بما لا يتحقّق فيه، وهذا درس لنا جميعًا، أن لا ندّعي ما لا نمتلكه، وأن لا نحب أن نُمدَح بما ليس فينا.

هذا، وإذا نظرنا في "الفتاوى الرضوية" للإمام أحمد رضا، واطلعنا على سائر مؤلفاته، نعلم علم اليقين أن الإمام لم يكن مجرد المفتي يكتب الجواب بنعم أو لا، أو جائز أو غير جائز، بل

إذا سئل الإمام عن مسألة شرعية، كتب الجواب بطريقة يظهر فيها بوضوح أنه ليس مجرد جواب المفتي، بل هو كلام وليّ من أولياء الله، وعارف من العارفين، وصوفي عامل، ومتبع صادق لسنة رسول الله ﷺ.

ويكاد القارئ إذا قرأ فتاواه، أن يرى فيها لمحة من "عوارف المعارف" للشيخ شهاب الدين السهروردي، أو من "الفتوحات الغيبية" للغوث الأعظم الشيخ عبد القادر الجيلاني، فذلك الأسلوب كان أسلوب العلماء العاملين، والصالحين السالكين، لا مجرد فتاوى نظرية من قلم المفتي العادي، بل كانت هداية ربانية من عالم رباني، جامع بين الشريعة والطريقة.

ولم يكن نُطقه نُطقَ المفتي التقليدي، بل تدفُّقَ بحورِ الشريعةِ والطريقةِ في سطورٍ ناطقةٍ بالتوجيه والإرشاد.

وقد رفعه الله في درجات التصوف حتى اعترف بمقامه فيه الأولياء والصالحون من أهل عصره، من عربٍ وعجم، فالإمام لم يكن فحسب من كبار العلماء، بل كان من أئمة التصوف في زمانه، ومن الصوفية الكاملين العاملين.

نسأل الله تعالى أن يملأ قلوبنا بمحبة هذا الإمام العظيم، وأن يغفر لنا ببركته، ويرفع درجته في عليين، آمين.

الإمام وإصلاح المجتمع

بسم الله الرحمن الرحيم

السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ.

الْحَمْدُ لِوَلِيِّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى نَبِيِّهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر:٢٨]

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ.

سماحة الحضور!

قال لي صديقي الكريم فضيلة الشيخ الحافظ المقرئ المفتي سليم، أستاذ علوم الشريعة بجامعة منظر الإسلام بمدينة بريلي

– حفظه الله ورعاه – أن أُقدم بكلمة موجزة حول شخصية الإمام أحمد رضا.

وإني، وقد أكرمني الله بهذا الطلب، أستأذنكم اليوم أن أخرج عن الأسلوب التقليدي في تناول التراجم والسِّيَر، وأتوجه بكم إلى جانب من جوانب حياة الإمام، قلما يُسلَّط عليه الضوء، وهو المواقف العملية والسلوكية اليومية التي تُجسِّد حقيقة علمه وإخلاصه وزهده وتقواه.

وإني على يقين أن القلوب ألين لقبول الموعظة حين تراها مجسدةً في صورة إنسان، يسير على الأرض ويعيش ما نعيش، ويجاهد نفسه كما نجاهد، فكلما اقتربنا من سيرته الواقعية، واقتدينا بها، كنا على طريق الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة بإذن الله تعالى.

لقد كانت حياته مليئةً بالمواقف التي يُمكن للإنسان أن يُصلح بها نفسه، سواءً أراد أن يعيش وفق هدي الشريعة بكونه مفتياً أو مسلماً.

وأوّل وقفة أذكرها اليوم تتعلق بمسألةٍ تُسبب النزاع والشقاق بين أفراد الأسرة في زماننا، وهي مسألة تقسيم الميراث.

لكن إذا جعلنا شخصية الإمام أحمد رضا قدوةً في هذا

الباب، فلن يقع النزاع بين الإخوة والأخوات أبدًا.

فقد ذكر العلامة حسنين رضا ابنُ الأخ للإمام أحمد رضا، في كتابه "سيرت أعلى حضرت": "إن والد الإمام أحمد رضا، العلّامة نقي علي خان، لما أراد أن يُقسّم تركته في حياته، أعطى أخوات الإمام حصصهن من الميراث.

وكان الإمام في تلك الفترة مشغولًا في التصنيف والتأليف، والتدريس، وخدمة الدين، فأراد الوالد أن يُسجّل بقية الثروة باسم الإمام، واقترح أن يأخذ إخوته الأخرون مبلغًا شهريًا من الإمام.

فحين قُدّم هذا المقترح إلى الإمام، قال: أهذا أمرٌ أم مشورة؟" فقيل له: بل هو مشورة.

فقال الإمام: إني لا أقبل هذا التقسيم؛ بل يجب أن يكون لإخوتي نصيب في الميراث أيضًا.

ثم قَسَّم الوالد التركة من جديد، ولكن كان نصيب الإمام أكثر من نصيب إخوته.

فقال الوالد: "الآن هذا أمرٌ لا مشورة."

فقَبِل الإمام هذا الأمر، لكن بعد وفاة والده الكريم، قال لوالدته: "حاولي يا أمي! أن تدبّري نفقات البيت بطريقةٍ يُوفَّر منها

مبلغ سنوي، فنشتري به شيئًا من الأملاك لإخوتي."

وبالفعل، تم شراء أملاك لهم، حتى صار لكلِّ إخوة الإمام أملاكٌ تساوي أملاك الإمام نفسه.

ومن الفوائد التربوية من هذه المحطة الحياتية للإمام، أن العدل في الميراث سبب للسلام الأسري، والحرص على حق الآخرين دلالة على الورع والإنصاف، ومنهج الإمام في الإنفاق والتضحية نموذج يُحتذى به في حل المشكلات المجتمعية.

سُبْحَانَ اللَّهِ! تأمّلوا أيها الإخوة الكرام! من في هذا العصر يريد أن تكون ثروة إخوته مساوية لثروته؟!

ففي زماننا، بعد وفاة الوالدين، لا يُريد الأخ الأكبر أن يعطي الأصغر حقّه، ولا الأصغر يُريد أن يُسلّم حقَّ الأكبر، مع أن الشريعة قد بيّنت نصيب كلّ بوضوح.

لكن انظروا إلى الإمام أحمد رضا – رحمه الله تعالى – كيف تصرّف وهو ابن خمس وعشرين سنة، فأحسن إلى إخوته وأظهر معهم من الحُسن والمودّة ما سيبقى مثالاً حيّا يحتذى إلى آخر الزمان.

ومما يُؤيّد ذلك، ماذكره فضيلة المفتي سليم حفظه الله في كتابه "خلفاء أعلى حضرت"، حيث كتب: " أن أحد الناس لاحظ

المحبةَ والألفةَ بين الإمام وبين إخوته، فأراد أن يُوقع بينهم الفتنة والعداوة، فجاء إلى الإمام وقال: "هل تعلم أن أخاك قد اشترى حُليًا لزوجته من مالك؟"

ففهم الإمام مقصدَه، وأنه يريد زرع الخلاف بين الإخوة، فقال له بهدوء:"وأين المشكلة في ذلك؟ بل أنا سعيدٌ بأن أخي لم يعتبر مالي مالًا أجنبيًّا، بل اعتبره ماله، واستخدمه لصالح زوجته، وهذا شيء يُفرحني."

فبهذا الردّ الحكيم، أسكت ذلك الشخصَ، وأبطل سعيَه في فتنة زرع الشقاق.

إنَّ هذا الموقف من الإمام، يُعتبر درسًا عظيمًا لإخواننا في هذا العصر، فينبغي أن نُقسّم التركة فيما بيننا بعدلٍ، وأن نحفظ أواصر المحبة، ونسدّ طرق الحاسدين والمفسدين.

ومن الفوائد التربوية من هذه الواقعة، أن الشفافية والنية الصافية تُغلق أبواب الفتن، والإمام قدّم محبة الإخوة على حُب المال، وردُّ الإمام على الفتّان بحكمة هو أسلوب نبوي في درء الفتنة، والإمام أحمد رضا نموذج للعلماء والمفتين وعامة الناس على السواء.

وهناك محطة أخرى من محطات حياته العلمية، كما كتب ابنُ أخيه، العلامة حسنين رضا – حفظه الله – وتلك أن الإمام

كتب جوابًا عن مسألة فقهية، كما كتب والده العلامة نقي علي خان – رحمه الله تعالى– جوابًا فيها أيضًا، وحصل اختلاف في الرأي بين الأب وابنه حول حكم المسئلة.

وفي زماننا، إذا اختلف المفتيان، يصيب الناسَ الاضطراب والقلق، ولكن ينبغي أن نعلم أن الاختلاف في الفروع أمرٌ طبيعي ومقبول في الشريعة.

فقال الوالد المكرّم: "نرسل هذين الجوابين إلى علماء مدينة رام فور للتحقيق والتصديق."

فلما عاد الجوابان، وُجد أن أغلب العلماء كتبوا على فتوى الإمام أحمد رضا: "الجواب صحيح"، مع توقيعات كثيرة، وأما على فتوى والده فلم تكن إلا توقيعات قليلة.

فما كان من الوالد الكريم إلا أن ضمّ ابنه إلى صدره، وفرح فرحًا شديدًا، ورجع عن رأيه، وأقرّ بصواب فتوى ابنه.

ومن الفوائد التربوية والعلمية، أن الاختلاف الفقهي في الفروع لا يُفسد للودّ قضية، وأن الأدب بين العلماء، لاسيّما بين الأب والابن، نموذجٌ فريد في تواضع العلماء، وأن الاعتراف بالحق والرجوع إليه خُلُق العلماء الكبار، وأن التشاور وتحكيم أهل العلم منهج أصيل في الفتوى.

وفيما مضى درس بالغ للمفتين والعلماء، أنّه إذا وقع اختلافٌ في الرأي، فليكن ذلك داخل دائرة الأدب والاحترام.

فالإمام أحمد رضا خان الهندي قد خالف والده في الفتوى، لكنه لم يخرج عن دائرة الأدب، بل أظهر التواضع مع والده، وبحث معه بالأدلة، حتى ارتضيا أن يُرسلا جوابيهما إلى علماء منصفين.

فلما جاءت الردود، قُبلت الفتوى التي وافق عليها الأكثر، وتُرِكت الفتوى الأخرى بصدر رحيب.

واليوم نحن بأمسّ الحاجة إلى إحياء هذا النهج المبارك، ومن أسباب الاضطراب والانقسام في جماعتنا اليوم، أن كل أحد صار يملك قلمًا وورقة، فيبدأ بالرد على أخيه فورًا، ويكتب ضده دون تواصل أو مناقشة علمية.

فأنا أوجّه خطابي إلى إخواني المفتين والعلماء الذين يربطون أنفسهم بالإمام أحمد رضا، يا أخي! قبل أن تكتب ردًّا على أخيك، تحدّث معه أولًا، ناقشه شفهيًّا، أو راسله، أو كلّمه عبر الهاتف، بيّن له الأدلة، فإن أصرَّ على الباطل بعد وضوح الحق وسطوعه، عند ذلك يجوز لك أن تردّ عليه وتبيّن خطأه مع التمسك بالاحترام والآدأب العلمية.

أما أن تبدأ بالردّ في أول لحظة، وتُخرجه من السنّة، وتتهمه

بالخروج عن منهج الإمام، فهذا مخالفٌ تمامًا لما كان عليه الإمام أحمد رضا، كما سمعتم الآن.

ومن تناقضاتنا اليوم، نحن ندّعي محبة الإمام أحمد رضا، لكن لا نُحيي ما كان عليه من الجرأة في الردّ على البدع والمنكرات، نرى البدع أمامنا، ونسكت عنها، نذهب إلى الاحتفالات والمواليد، فنمدح صاحب السجادة أكثر من مدحنا للشيخ المدفون، بل ربما نمدحه بما لا يستحق!

وهذا ليس من طريقة الإمام، بل الإمام كان شديدًا على البدع وأهلها، وكان لا يُجامل في الدين، وكان لا يُعظّم إلا من يستحق التعظيم وبما يستحقه وقدر ما يستحق.

فخلاصة القول: إن الإمام أحمد رضا كان قدوة في احترام الخلاف، لا في نشر العداء، وأدب الخلاف ضرورة، ولا يجوز إخراج الناس عن السنّة دون بيّنة ومناصحة، ومن يدّعي حبّ الإمام، فليحي منهجه في محاربة البدع.

ومما يعلي عظمةَ الإمام أحمد رضا، ما ذكره العلامة يسين أختر المصباحي، أنه ذات مرة حضر الإمام إلى بلدة مارهره المطهّرة بمديرية إيته بولاية الشمال، في ذكرى الشيخ بركت الله المارهرَوي – رحمه الله تعالى–.

وكان الإمام نزيلًا في حجرةٍ بجوار الضريح، وفي تلك الفترة كانت هناك امرأةٌ مغنية قد جاءت إلى مارهره عند بعض الرجال الأغنياء.

وحين علمت بالعرس أو الذكرى، جلست خارج الضريح مع أصحابها، وأعدّت آلات الطرب والموسيقى، وهمّت بالغناء.

فما إن وقع نظر الإمام أحمد رضا عليها، إلا وتحرّك من فوره، وخرج من حجرته، وتوجه نحوهم وقال بغضب: "كيف جئتم إلى هنا؟! هذه الزاوية العالية ليست مكانًا للغناء والمعاصي والشيطنة! اخرجوا من هنا فورًا!" فأمرهم بالرحيل، وطردهم من جوار الضريح.

فهذا هو الإمام أحمد رضا! لم يكتفِ بإصدار الفتاوى فقط، بل إذا رأى المنكر بعينه، قام بالإنكار بنفسه، دون أن يخشى اللوم أو الغضب من أحد، حتى لو كان صاحب السجادة نفسه.

بل إن صاحب السجادة في بلدة مارهره آنذاك كان من الموافقين لفتاوى الإمام، والعاملين بها، ولكن الإمام لم ينتظر إذنًا من أحد، بل قام بنفسه ليكون قدوةً لغيره من العلماء.

ويستفاد من موقف كهذا، أن على العالم أن يُنكر المنكر إذا رآه، لا أن يسكت حياءً أو خوفًا، والإنكار له وسائل شتى من اليد، واللسان، والقلم، كل حسب قدرته، ومن يدّعي الانتساب

إلى الإمام، فعليه أن يُحيي غيرة الإمام على إحياء السنّة، ولا يجوز التستر على البدع باسم التبرّك أو العُرس أو الذكرى أو الولاء للمشايخ، إن الإمام لم يجامِل أحدًا في الدين، بل قام بالحقِّ، في الوقت والمكان المناسبين.

وقد أصبح بعض الناس اليوم، ممن يدّعون الانتساب إلى الإمام، يستغلّون اسم "الدعاء والرقعة الشرعية، ليأخذوا أموال الناس بالباطل، ويجمعوا الثروات، ثم يقولون: "نحن من أتباع الإمام أحمد رضا!"

فأقول لهؤلاء: انظروا إلى سيرة الإمام! هل فعل الإمام هذا؟ هل كان يرضى بالبدع، أو يستغل الدين لجمع المال؟

بل كان الإمام–رحمه الله تعالى– يُحارب كل انحرافٍ في الدين.

فذكر فضيلة الشيخ يسين أختر المصباحي – رحمه الله– أن رجلًا جاء مرةً إلى الإمام أحمد رضا، وأهدى له "هاندِي" وهو نوع خاص من الحلوى المعروفة في منطقة "بدايون" بولاية الشمال بالهند.

فقال له الإمام: "ما هذه المشقة؟" فأجاب: "لا شيء، فقط جئت للسلام والزيارة."

سأله الإمام مرارًا: "هل تريد شيئًا؟" فأجاب كل مرة: "لا، لا شيء أبدًا."

فأمر الإمام أن تُرسل تلك الحلوى داخل البيت، وبعد قليل، طلب الرجل تعويذًا (رُقية شرعية).

فقال الإمام– رحمه الله تعالى–: "لقد سألتك ثلاث مرات: هل عندك حاجة؟ فقلتَ: لا، والآن تطلب التعويذ؟، أنا لا أبيع التعويذ."

ثم طلب الإمام أن تُعاد الحلوى إليه، وقال للرجل: "خُذ هذه الحلوى، فالتعويذ لا يُباع في داري."

فألحَّ الرجل في طلبه، لكن الإمام لم يرضَ، وأمر ابن أخته الشيخ علي أحمد خان، أن يعطيه التعويذ مجانًا.

هذا هو الإمام أحمد رضا، لم يرضَ أن يظن أحدٌ أن التعويذ يُباع عنده، مع أن الشريعة لا تمنع أخذ النذر والهِبات، لكن الإمام كان إمامًا للأمّة، وقدوةً في الاستغناء، فعلّم العلماءَ أن لا يطلبوا أجرًا على الدعاء أو النصيحة أو الرقية.

وإنه من تمام ورع الإمام واستغنائه، أنه لم يكن يُقرّب أهل المال لأجل دنياهم، بل كان يُجلّهم إذا بذلوا للدين، ويُكرمهم إن كانوا من أهل التقوى، لكنّه كان يبتعد عن الصِلات الدنيوية بهم.

حتى أن نواب رام فور أرادوا زيارته، فقال الإمام: بيتي لا يليق باستقبال رجال الدولة، ولا أنا أعرف آداب الحضور عند

الملوك، فلا أنا أستطيع دعوتهم، ولا أقدر على زيارتهم.

ومن يدّعي الانتساب للإمام فعليه أن يتحلّى بعزّته واستقامته واستغنائه، وكذا كل من يكتب التعويذات ويأخذ الأجور الباهظة، عليه أن ينظر إلى سيرة الإمام أحمد رضا، فما كان يطلب شيئًا، بل يُهدي العلم والدعاء بلا مقابل.

نعم، يجوز للعلماء أن يأخذوا نذورًا أو عطايا إذا كانت خالصة، ولم تكن مشروطة بخدمة دينية، لكن بيع التعويذ، وتجارة الدعاء، واستغلال حاجات الناس، هو أمر يُشوّه صورة الدين، ويُبعد الناس عن الحق.

كان موقف الإمام أحمد رضا – رحمه تعالى الله – في الزهد والاستغناء نموذجًا حيًّا للعلماء العاملين، فقد كان يحرص على ألا يُظنّ به أنه يتردد إلى الأغنياء فقط ويهمل الفقراء.

ومن ناحية أخرى، كانت محبته للمسلمين، ولا سيما الفقراء والضعفاء، عظيمةً جدًا.

وذكر فضيلة العلامة يسين أختر المصباحي رحمه الله: أنّ رجلاً من سكان مدينة بريلي كان يتردد على مجلس الإمام، وذات يوم، جلس على السرير في حضرته، ودخل رجل حلاق (وكان مسلما فقيرا) يُدعى "كريم بخش"، فقال له الإمام: "يا أخي كريم

بخش! اجلس، المسلمون إخوة فيما بينهم."

لكنّ ذلك الرجل استثقل أن يجلس بجواره حلاقٌ فقير، فقام وخرج من المجلس.

فقال الإمام: "أنا أيضًا لا أريد لقاء هذا المتكبر المغرور، الذي لا يُحب الجلوس مع فقراء المسلمين."

هذا هو الإمام أحمد رضا – رحمه تعالى الله – الذي كان يتواضع للفقراء، ويُكرمهم، ويُجالسهم، بل وكان يُحبهم ويدافع عنهم، ويُحسن إليهم.

وكان الإمام –رحمه الله تعالى– يُساعد الأرامل، واليتامى، والمساكين، حتى فقراء المدينة المنورة، فكان يرسل إليهم المعونات والمساعدات.

وكان يُنفق من ماله على طلبة العلم الفقراء، كما أنه أنشأ دار العلوم من ماله الخاص، وطبع كتبه، وساعد في طباعة كتب الآخرين، ونشر العلم في مشارق الأرض ومغاربها.

فلابد أن يُنشأ في مدينة بريلي عشرون أوثلاثون مركزًا علميا كله يكون تابعا لـ"بيت الزكاة" الذي يتم تكوينه لخدمة الفقراء والمساكين واليتامى، ولدعم العلماء وطباعة الكتب النافعة، ولدعم طلاب العلم المحتاجين من خلال جمع الزكوات

والصدقات والتبرعات من المسلمين لأنحاء العالم.

ويُسلَّم إدارة بيت الزكاة إلى صاحب السجادة الرضوية، أو بعض المخلصين من بريلي، ليقوموا بتوزيع الأموال حسب الحاجة، بكل عناية وشفافية.

وبهذه الطريقة، سيتعلق الناس بالمركز أكثر، وتحيا روح الخدمة التي كان عليها الإمام، ويُجمع بين الدعوة إلى الله وخدمة الإنسان، ويُرسّخ مفهوم أن الزهد لا يعني التخلي عن العمل والتنظيم، بل العطاء بغير طمع.

فمن أحبّ الإمام أحمد رضا، فليُحي خلقه، وليَبن على نهجه، وليجعل خدمته للفقراء والمساكين طريقًا لنيل رضى الله تعالى.

وقبل أن أختم كلمتي، أود أن أُقدّم لكم ثلاث وصايا عظيمة للإمام أحمد رضا، ذكرها قبل أكثر من مائة سنة للنهوض بأهل السنة، ولا تزال هذه الوصايا صالحة لكل زمان ومكان، ولكنها تحتاج إلى التطبيق العملي، لا إلى الأقوال فقط، و تلك الوصايا تتمثل في:

أولا: اتحاد العلماء: فتقدّم أهل السنّة ممكنٌ إذا اتّحد العلماء.

وأنا أقول: نعم، لقد وقع اختلافٌ في الفروع منذ القديم، وسيبقى، ولكن إذا اتّحدنا في العقيدة، واتّبعنا ما قرره الإمام أحمد

رضا من أصول، وما علم من الدين بالضرورة، فهذا الأخ الذي يخالفك في الفروع يبقى أخاك، ولا ينبغي أن نشق عصا الصفوف من أجل الفروع.

أما من يوافق من ردّ عليهم الإمام، أو يقرّ أهل البدع الذين أفتى الإمام ضدهم، فهذا من لا يُعدّ منّا، ويجب البراءة منه، لكن من يخالف في الفروع فقط، فليكن الرد عليه بأدب، وبرهان، واحترام، مع بقاء المحبة بين العلماء حتى مع الاختلاف، فلنحافظ على المحبة، وإذا جلستَ معه في مجلس، فلا تُهاجمه، ولا تسخر منه، ولا تردّ عليه ردًّا جارحًا أمام الناس، بل حافظ على الأخوّة، وأدب العلم.

ثانيا: الصبر على المشقة في سبيل نشر الدين: فعلينا أن نتحمّل المشقة في سبيل نشر الدين، وأن نصبر على كل صعوبة نواجهها.

فالإمام أحمد رضا، لو أراد أن يُسافر الدنيا كلها لفعل، لكنّه آثر أن يبقى في زوايا بيته، ويكتب، ويؤلف، ويخدم الدين بقلمه، حتى أصبح تراثه اليوم كافيًا لحفظ إيمان الأمة كلها.

فلو طُبعت جميع كتبه، ولم تُكتب كتب غيرها، لكفى بها حفظًا للإيمان، وسدًا لحاجات أهل السنة.

فعلى كل فرد اليوم، أن يتحمل المشاق، وأن يخدم الدين من

مكانه، وحسب قدرته، تمامًا كما فعل الإمام.

وثالثا: إنفاق الأغنياء بإخلاص لله لا للرياء: فعلى الأغنياء أن يُنفقوا أموالهم خالصةً لوجه الله، لا للرياء، ولا للمكانة، ولا للشهرة.

وليكن إنفاقهم في التعليم الديني، والتعليم العصري، وطباعة الكتب الإسلامية، ومساعدة الفقراء، وخدمة الإنسانية عمومًا.

وبما نحن نعيش في دولة فيها المسلم وغير المسلم، فينبغي أن نُساعد الإنسان بما هو إنسان، كما يُعلّمنا الإسلام.

فلو تحققت هذه الثلاثة من اتحاد العلماء، والصبر في سبيل الدعوة، وإنفاق المخلصين، لنهضت السُنّة، وعاد مجد أهل الحق، وساد نور الإمام في أرجاء الأمة.

قصارى القول: إن الإمام أحمد رضا لم يكن مجرّد محدثٍ أو مفتٍ، بل كان إمامًا ومصلحًا ومجددًا للأمة.

وكلمة "الإمام" أيضا يعني من يُتبع، ويُقتدى به، فمن أراد النجاح، والفلاح، والثبات على الحق، فلْيجعل سيرة الإمام أحمد رضا نموذجًا في حياته.

اللّٰهُمَّ وفّقنا للاقتداء بسيرته، وارزقنا العمل بوصاياه، واغفر لنا زلاتنا، وأستغفر الله ربي من كل ذنب وأتوب إليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الإمام والمحافظة على الأوقات:

الوقت نعمة عظيمة وجليلة أنعم الله تعالى بها على عباده، وقد كان لتقدير الوقت دور محوري في مسيرة رقيّ الأمم وانحطاطها، فكلّ من أدرك قيمة الوقت، ترقّى من أدنى المراتب إلى أعلاها رفعة، ومن الذرّة إلى الشمس سُطوعًا.

والتاريخ الإسلامي شاهدُ صدق على أن سلفنا الصالحين وأكابر علمائنا كانوا يحرصون أشد الحرص على حفظ الأوقات وصيانة اللحظات، فلا يضيعون دقيقة من أعمارهم الغالية في لهو أو شغل لا طائل تحته.

ومن ثمّ، فقد أنجزوا في مجالات التأليف والتصنيف، والدعوة والتبليغ، والتدريس والبحث، والإرشاد والتوجيه أعمالًا جليلة ومآثر عظيمة تبهر العقول وتدهش الألباب عند تأملها وقراءتها.

ومن أبرز أولئك الأنفس الزكية والهمم العلية، مجدد الأمة، الفقيه النحرير، الإمام أحمد رضا الحنفي القادري، الذي تميّز بتقديره العظيم للوقت وحُسن استثماره في خدمة العلم والدين.

وقبل الخوض في مضامين هذا المقال وما ينطوي عليه

عنوانه من أبعاد فكرية وجوانب واقعية، يحسن بنا أن نمهّد الحديث ببيان أهمية الوقت في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، لما في ذلك من تمهيد علمي نافع، وتنبيه رصين إلى مكانة هذا العنصر الجوهري في بناء الحياة الفردية والمجتمعية.

فالوقت في التصور الإسلامي ليس مجرد وعاء تمرّ فيه الأحداث، ولا مجرد عدد من الساعات تُحسب أو تُهدر، بل هو رأس مال الإنسان الحقيقي، ومحل سؤاله يوم القيامة، وميدان ابتلائه في الدنيا.

وقد عَظّم القرآن الكريم شأن الوقت لدرجة أن الله عز وجل أقسم بأجزائه المختلفة في مواطن متفرقة من كتابه الكريم، مما يدل على عظيم منزلته ورفيع قدره، إذ لا يقسم الله إلا بعظيم، فقال تعالى:

﴿وَالْفَجْرِ﴾،﴿وَالضُّحَى﴾، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾، ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾، ﴿وَالْعَصْرِ﴾...

وهذه الأقسام ليست لمجرد التعظيم فحسب، بل تحمل دلالات تربوية وتوجيهات سلوكية، تنبه الإنسان إلى قيمة الزمن ووجوب استثماره فيما يعود عليه بالنفع في دنياه وأخراه.

فمن ضيّع وقته، فقد ضيّع عمره، ومن فرّط في ساعاته،

فقد فرّط في أثمن ما يمتلك، إذ إن الأنفاس معدودة، والأيام محدودة، والمآل إما إلى فلاح وخلود، أو إلى خسران وندم لا يفيد فيه التأسف ولا التأوه.

كما أن الشريعة الإسلامية قد ربطت أعظم العبادات بالأوقات، فجعلت الصلاة والصيام وغيرها من الفروض محددة بحدود زمانية، فلا تُقبل إلا في أوقاتها، وإلا كانت قضاءً لا أداءً، ليكون المؤمن على وعي تام ودائم بأهمية الوقت، ويجعل نفسه ملتزمًا منضبطًا في التعامل معه، عارفًا لقدره، حريصًا على اغتنامه.

ومما يدل على عظيم شأن الوقت قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

ففي هذه الآية الكريمة إشارة إلى أن تعاقب الليل والنهار ليس عبثًا، بل هو مجال للتذكّر والتفكر، ولشكر المنعم، واغتنام الفرص، واستثمار الأوقات في طاعة الله تعالى، لمن شاء أن يعتبر أو يرتقى.

وكذلك قد جاءت الأحاديث النبوية الشريفة لتؤكد على قيمة الوقت، وتنهى عن تضييع الأعمار في اللهو واللغو، فقد قال رسول الله ﷺ: مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ» (رواه الترمذي).

وفي هذا الحديث الشريف توجيه صريح للمسلم بأن يبتعد عن الأمور التي لا نفع فيها، ويصرف وقته فيما يعود عليه بخير الدنيا والآخرة، مما يُظهر أهميّة الوقت ووجوب اغتنامه فيما هو نافع ومفيد.

وفي حديث آخر، نبّه النبي ﷺ الأمة إلى اغتنام الفرص قبل فواتها، فقال: "اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك". (مشكاة المصابيح)

فهذه الوصايا النبوية تذكّر المسلم بأن لحظات عمره رأس ماله الحقيقي، فعليه أن يحرص على كل دقيقة منه، فلا يدعه يضيع سدى في اللهو والغفلة، فيندم حين لا ينفع الندم.

وقد وردت في السنة النبوية أحاديث كثيرة غير ما ذكرنا، تدعو كلها إلى تعظيم الوقت وحسن استغلاله، وأكتفي بهذا القدر، وأوجّه لساني الآن إلى الأبعاد الأساسية لهذا المقال.

منها اهتمام الإمام بحفظ الأوقات في الصغر:

أخبر ملك العلماء الشيخ ظفر الدين البهاري، بأنّ المحترم علي محمد خان نقل عن الوالدة الكريمة أنها كانت تقول: لم يكن الإمام أحمد رضا في الصغر يُجبر على الذهاب للدراسة أو يُكره

عليها، بل كان يذهب بنفسه مختارا بانتظام، راغبًا في طلب العلم، حتى إنه في أحد الأيام أراد الذهاب إلى المدرسة يوم الجمعة أيضًا، غير أن والده الجليل نهاه عن ذلك، فبقي في البيت مطيعا راضيا.[١]

فهذا يدلّ على أن الإمام قد نشأ منذ نعومة أظفاره على حب العلم، واغتنام الأوقات، والحرص على التعلم دون إكراه أو إجبار، بل بدافع ذاتي وعزيمة صادقة، مما يُنبئ عن عظمة ما سيكون عليه شأنه في مستقبل الأيام.

وجاء في كتاب "حيات أعلى حضرت" [حياة الإمام أحمد رضا بالأردية]، أن الإمام لم يكن يرى جواز الصلاة على القطار المتحرك، ولذلك كان يتّخذ احتياطات دقيقة قبل الشروع في السفر.

فكان إذا عزم على السفر بقطار معين، أو على الرجوع به، يطلب جدول مواعيد القطارات (Time Table)، ثم يحدّد من خلاله المحطات التي يدخل فيها وقت كل صلاة، وما ينتهي وقتها فيها.

وكان يكتب أسماء تلك المحطات بجانب كل وقت من أوقات الصلاة، ثم يستخرج حسب قواعد علم الهيئة، خطوط الطول والعرض لتلك المناطق، ويحسب بها أوقات الصلاة بدقة، حتى يطمئن قلبه إلى أن جميع الصلوات ستؤدّى في وقتها مع

(١) "حيات أعلى حضرت"، صـ ١١٣.

الجماعة، خلال الرحلة كلها.

فإذا اطمأن بذلك، عزم على السفر، ووعد به، ورتّب الأمور وفق ذلك المخطط، حتى إذا اقترب القطار من محطة الصلاة، بدأ بالاستعداد والتوضؤ، وعند بلوغها تُقام الجماعة فورًا، بحسب الوقت والمكان المحدّد مسبقا.

أيها الحضور الكرام! إنّ عناية الإمام في زمانه بالحفاظ على الوقت وإقامة الصلاة في السفر كما ورد في العبارات المذكورة، لتدلّ واضحةً على حرصه الشديد على أداء الصلاة في أوقاتها، وهذا درسٌ بليغٌ وتوجيه رشيد لناشري المذهب، والعلماء، والخطباء، والوعّاظ خاصةً.

فقد رفض الإمام ترك الجماعة في حال السفر، في حين أنّ كثيرًا من خطبائنا اليوم يكتفون بالصلاة في مقرّ الإقامة حتى في حال الإقامة، بل إنّ بعضهم لا يُقيم حتى بذلك، كما أنه لا حضور في الوقت المحدد في المجلس، ولا حرص على إنهاء المجلس في وقته المناسب.

يا ليتهم يراعون أحوال المرضى والمعذورين! فمن تمام الفقه في الدين، أن يُراعى حال المرضى وأصحاب الأعذار، كما أرشدت الشريعة الإسلامية، التي ما جعلت في الدين من حرج، كما في الآية الكريم: ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾. [الحج:٧٨]

وإجابةً على سؤال وُجّه من قِبَل مسؤولي "أنجمن نعمانيه لاهور"، بباكستان حاليا، كتب الإمام أحمد رضا خان ما نصّه:

"يا مولانا، إنّ هذا الفقير الحقير مثقّلٌ ومحمّل بالأعمال العلمية والدينية إلى حدٍّ لا يوصف، حتى لا أجد فرصةً لوضع قدمي في مدرستي، وهذه الخدمة التي يتفضل بها المولى الكريم على هذا الفقير المقصّر، إنّما هي خدمةٌ لأهل السنّة ومذهب أهل السنّة فقط، فليتفضل من شاء من السادة والعلماء بالبقاء عندي ما شاء الله له من الأيام: شهرًا أو شهرين، سنة أو سنتين، ثم في أيّة دقيقة يراني فيها فارغًا، أو يراني مشغولًا بعملٍ شخصيٍّ، فليحاسبني قائلًا: في هذه المدّة كان بإمكانك القيام بعمل آخر". (الفتاوى الرضوية)

أيها الحضور! إنّ قول الإمام "فليحاسبني في الدقيقة التي يراني فيها فارغًا"، يُظهر بجلاءٍ مدى حرصه على كل دقيقة من ساعاته، فحيث تكون الدقيقة بهذه القيمة وبهذه الأهمية، فكيف بالساعات والأيام والأسابيع والشهور والسنين!

فينبغي لحاملي منهج الإمام أن يعتبروا بهذا الجانب المضيء من حياته، ويشمّروا عن سواعد الجدّ لخدمة الدين والسنّة من أوّل فرصة.

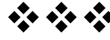
ويا ليتنا ـ إن لم نحسن استغلال الدقائق ـ نُحسن على الأقل استثمار الأيام فيما ينفع، فحين ذلك يمكن لأهل السنّة أن

ينهضوا في العالم كقوة عظيمة شامخة.

إنّ عدد مؤلفات إمام أهل السنّة الإمام أحمد رضا خان، لم يحصر إلى يومنا هذا حصرا دقيقا، فلو نظرنا فقط إلى الفتاوى الرضوية، لوجدناها في ثلاثين مجلّدًا، ومجموع صفحاتها يبلغ (٢٢٩٧٠) صفحة، وتضم (٩٨٤٧) مسألة واستفتاءا، ومائتين وأربعين رسالة (٢٠٠٤)، هذا فضلًا عن حاشيته على "الدر المختار" في سبعة مجلدات، كل مجلد يقارب خمس مائة صفحة، وحاشيته على "فواتح الرحموت"، وتعليقاته على جامع الترمذي بالكامل، وناهيك عن عشرات المؤلفات المستقلة، والحواشي، والتعليقات، والشروح على كتب الأئمة.

فكل هذا يدلّ على أنّ هذا الإنتاج العلمي الهائل لم يكن إلا ثمرة حفظه الصارم للأوقات وتقديره الدقيق للأيام واللحظات، وحرصه الشديد على دقائق العمر والساعات.

فعلينا أن ندرك عِظم هذه النعمة، ونتأسّى به في تقدير الوقت واستثماره في خدمة العلم والدين والسنّة النبويّة، فكم من أعمارٍ تضيع، وكم من مواهبَ تذبل، بسبب التفريط والإهمال في الأوقات!



إن هذا العمل المتواضع قد رأى النور بفضل الله المنّان، ثمّ بجهود أحبّتنا الأعزاء، يتقدمهم الأخ الحاج سليم من ديادره، بمدينة بولتون، وسعادة الفاضل محمد نعيم، ولفيف من رفاقهم المكرمين في مدينة بليك بيرن، حفظهم الله جميعا.

وإنا، إذ نرفع أكفّ الحمد والثناء لله ذي الجلال، لا نمتلك إلا أن نُقدم عبارات الشكر العاطرة، والثناء الجميل لهؤلاء الكرام، على دعمهم الصادق، وتعاونهم النبيل، الذي كان له بالغ الأثر في إتمام هذا العمل.

نسأل الله تعالى، بمنّه وكرمه، أن يبارك لهم في أرزاقهم، وينمّي تجارتهم، ويرزقهم سعادة الدارين، ويثبّتهم وأهاليهم على دين الحق، ويجعلهم من عباده الصالحين.

آمين يا أرحم الراحمين ، بجاه سيد المرسلين ، صلى الله عليه وسلم.

محمد نظام الدين المصباحي

دار العلوم الغوثية، بليك بيرن، المملكة المتحدة